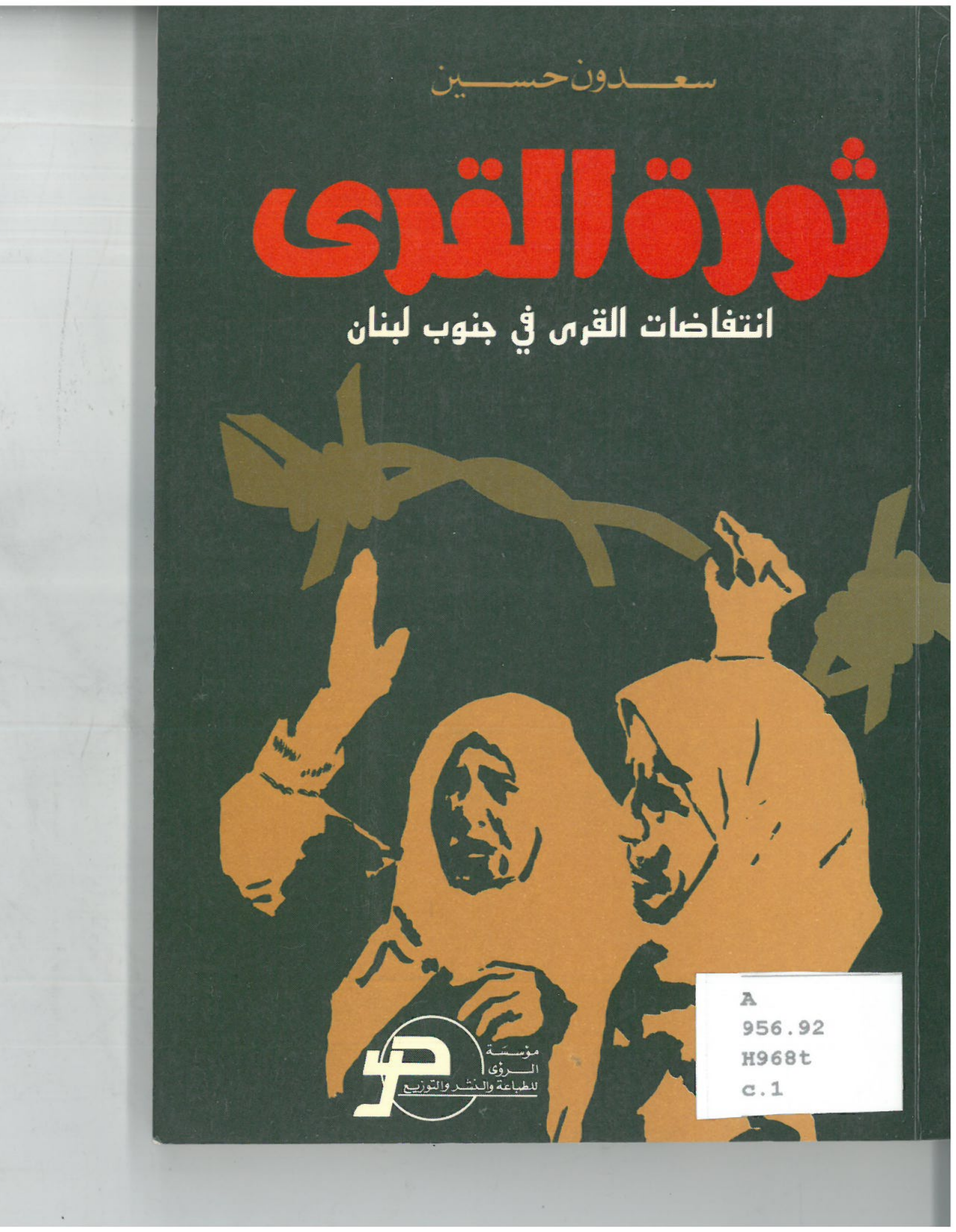


سعدون حسين
ثورة القرى
انتفاضات القرى في جنوب لبنان
مؤسسة الرؤى للطباعة والنشر والتوزيع

سعـــدون حسـين

ثورة القرى

انتفاضات القرى في جنوب لبنان



مؤسسة
الرؤى
للطباعة والنشر والتوزيع

الاهـداء

إلى أهلنا الصامدين في الجنوب والبقاع الغربي وراشيا .

إلى الذين يرسمون بدمائهم خارطة الوطن الجديد .

إلى منى ونجاة وعايدة ويسار .

س . ح .

١٩٨٥

مقدمة المؤلف

تستمر ثورة القرى، ثورة الأرض ذات الجفن « المعدنية ».
ثورة الحجارة المصنوعة من دم وعرق واكمام ورد.
وتتعالى صرخات « الله أكبر » و« بالدم بالروح نفديك يا جنوب » لتصبح نشيداً يومياً يردد في الساحات العامة والحسينيات والمدارس.
ثورة القرى، ثورة الطيور، ثورة التبغ ـ ثورة المقابر ـ.
ثورة العناقيد السكرى بماء الفجر.
ثورة الشرايين الصوانية.

* * *

هل سمعت بدالية تعربش على سبطانة رشاش؟
هل شاهدت نملة تزرع ألغاماً وتطير في الفضاء؟
هل رأيت عصفورة تسكن في موقد وتطعم « جلابيطها » صمتاً وبخاراً.
هل قرأت عن فلاح يبذر حقله بالخردق والرماد الأحمر المجنون؟

هل تحدثت مع امرأة ترضع طفلها حصى وآهات جوع؟

هل سمعت بالطفل الذي بكى فارتجف الكون خسوفاً وكسوفاً؟

والعجوز الشمطاء التي تسقط لعنتها العروش والانظمة، والنسر الذي يبيض رماناً وتفاحاً جبلياً؟

هل رأيت غزالة تمتطي صهوة النار فوق نهر الليطاني، وسمكة لها أجنحة من زيت؟

هل تحدثت مع صياد الغروب والشروق، أثناء الغروب تراه على شاطىء البحر يراشق السماء بحركات غريبة لأنها سرقت حبيبته، وأثناء الشروق تراه فوق قمة جبل الشيخ يحمل منديلاً مملوءاً بالتين واللوز فطوراً لحبيبته الشمس؟

هل حدقت بشوارب أبو علي التي صارت مثل شجرة الزنزلخت، يفيء إلى ظلها الأطفال، فيلعبون بـ «الكلل» و «الاكس» و «الغميضة» أيضاً.

إنهم «الاسكيميون» الجدد، «المشاعيون» الجدد هجروا منازلهم الحجرية. بعضهم يسكن المغاور، وبعضهم ينام بين الأشجار، والبعض لا يسكن أبداً.

إنهم الفيتناميون الجدد، الجزائريون الجدد، المسلمون الجدد ـ المسيحيون الجدد الذين أعادوا «للأمة» روحها وعزتها وكأن عبد الناصر عاد حياً هاتفاً: «ارفع رأسك يا أخي العربي».

إنهم أبطال المقاومة الوطنية اللبنانية في الجنوب والبقاع

الغربي وراشيا.

إنها «الالياذة» الجديدة، وها هو هوميروس يولد من جديد في معتقل انصار.

ويظهر كتاب «الجفر» في محفظة عايدة نصرالله حجراً يحرق «الميركافا».

* * *

ثورة القرى، ثورة دائمة لا تعرف «المراحل». ثورة من أجل التحرير والتغيير الجذري، وها هو العدو يعلن في الجنوب بمكبرات الصوت ـ بعد اعلانه سابقاً في بيروت ـ بدء رحيله: «يا أهالي «طيردبا» لا تطلقوا النار علينا... لا تقوموا بعمليات ضدنا... نحن دعاة سلام... لا تقطعوا الطريق».

١٩٨٥/١/٥

سعدون حسين

جبشيت

عندما تسلل اللص إلى غرفة نومها، سرق حليها وكسر « قجّة » كانت « تصمّد » فيها ليوم الزفاف، انقضَّ عليها، فجرح وجهها وقلع عينها اليسرى لتقديمها خاتماً لعاهرته.

لم يكتف اللص بفض بكارتها وحمل « العلامة » الى قومه ليؤكد شجاعته ورجولته... بل صعد إلى تتخيتة الدار، خلط البرغل بالزيت وأفرغ السمنة في كيس السكر ولما انتهى من غزوته، أشعل النار بالدار كي لا يبقى أثراً منها. ثم جاء بجرافة لهدمها لأنه سيبني مكانها مكتباً لبيع الأطفال.

* * *

ظن اللص أنه أصبح ملك الدنيا، فكل الكائنات والمخلوقات، في المحيطاتْ والقارات والبحار سوف تدين بدينه وتطيع أوامره، فالعصر عصره.

وهكذا بدأت الوفود تزدحم أمام بلاط قصره.

ـ أنت الخليفة، أنت أمير المؤمنين، بل أن أحدهم قدّم طفلته هدية له، وآخر ذبح ولده الوحيد أمام قدميه تباركاً، فاللص صار يطير من الكبرياء، فقد توّج ملكاً.

* * *

كل الناس رفعت «العشرة» وقد وردت أخبار إلى الضيعة أن اللص سيعلن نفسه آلهاً وسيسن دستوراً جديداً، فهو الذي يحدّد نوع الطعام الذي يؤكل، وأي الملابس تلبس، وفي أي ساعة يشرب الناس الماء أو ينامون ويضحكون، هو الذي يحدّد دورتهم الدموية وزوغان عيونهم، وإذا تزوّج أحدهم فسوف يراقب حركات الزوجين، يحصي القبلات، وله الحق الإلهي أن يمنعها من تحقيق النشوة.

أمر بقلع نصبات الزيتون، لأنها ترمز إلى الشر وكل من يزرع تبغاً فهو عاص لأوامره، كما أصدر فرماناً بتحويل مجرى النهر صعوداً نحو الجبل، وطلب من مساعديه أن يكمّوا خرير الشلاّل المجاور لقصره، ويضعوا خطة لمهاجمة البحر.

ـ أنت أيها البحر محظور عليك المد أو الجزر، محظور عليك الهيجان أو السكون، وأنت أيتها الأمواج إياكِ والحراك، إياكِ أن تزبدي وتعانقي الرمل.

جمع اللص أهالي البلدة، أمرهم بتغيير أسمائهم، وإذا رزق أحدهم بمولود فيجب أن يبقى بلا إسم وأن لا يعرف أمه وأباه، فهو إسمهم وأبوهم وأمهم.

* * *

أحد الفلاحين أنجبت زوجته طفلة.

ـ ماذا نفعل يا خديجة، هل ستبقى الطفلة بدون إسم؟

ـ يا ويلنا إذا عرف الملك فسوف يعدمنا ويأخذ طفلتنا ليجعلها خادمة في قصره.

ـ طيّب يا خديجة إذا حضر الجندرمة غداً وطلبوا الضريبة فأعطيهم البيض والقمح وليرة «عسملية» وقولي لهم إن البنت بلا إسم إطاعة لأوامر الملك.

وبدأت خديجة تبكي، كيف ستبقى طفلتها بلا إسم، بماذا ستناديها، ماذا وماذا إذا جاء «نصيبها»؟

ـ يا خديجة تعالي لأخبرك هذا السر.

ـ سر!!

ـ نعم سر، اليوم ليلاً نكوي البنت و«نعلّمها»، كي لا تضيع بين بنات الضيعة.

ـ وإذا بكت وسمع الملك؟

ـ نقول لهم إنها جائعة أو مريضة.

ـ يا زلمي الكي لا يكفي، تعال نتفق على إسم للبنت ونكتب إسمها في وصيتنا وإذا ما توفانا الله تعرف إسمها من الوصية.

ـ أحسن شيء هذا يا خديجة، ولكن ماذا سنسميها؟

ـ جبشيت.

* * *

كبرت الطفلة وصارت «تحوّش» التين وتبيعه في سوق البلدة، لكنها بدون إسم، ومرة سمعت أحد الكهول يناديها:

ـ يا بنت فلان.

منذ تلك الفترة أضحت الطفلة تبحث عن إسمها، وما زادها تفكيراً هو أن جندرمة الملك كانوا أحياناً يسطون على تين والدها وأحياناً يدخلون إلى بيتها، يشتمونها ويحاولون التحرش بها.

ـ أنتِ بدون إسم، اشتراك فلان من فلان، وأبوك غير معروف

وأمك زانية.

استمرت الطفلة في التفكير، فطرحت على نفسها الأسئلة، لماذا أنا بلا إسم؟

لماذا محرَّم عليَّ دخول المدرسة والنطّ على الحبلة وملاحقة الفراشات؟

لماذا لا أذهب إلى البحر وأبني بيتاً من رمل؟

لماذا لا يسمح لي بتسريح شعري وجدله بشكلة؟

لماذا لا أكحّل عيوني؟

لماذا هؤلاء القوم يصادرون تيني؟

صممَت أن تعرف إسمها. أن ترفع رأسها، فتحدثت مع رفيقاتها بضرورة «الإسم».

أحد المخبَرين أخبر الملك أن بنت فلان عرفت إسمها من وصية والدها، فجن جنونه وأمر وزيره باقتياد البنت وحرقها في ساحة البلدة بعد أن تقبّل قدميَ الملك.

★ ★ ★

صلبوها تحت الشمس عارية.

ـ ستكونين اليوم طعاماً للكلاب، لا حياة هنا لمن يجرؤ على معرفة إسمه.

وصرخت كالصاعقة:

ـ أنا جبشيت ـ جبشيت ـ جبشيت.

لم تكمل جبشيت صرختها حتى زلزلت الأرض زلزالها، الحجارة تحركت، عناقيد العنب صارت تغني وتقطف ذاتها، أغصان الزيتون صارت ترقص، الموتى نهضوا من قبورهم، أنهار تجمَّعت، جبال

انتصبت، ينابيع تفجَّرت، حتى الحشرات هتفت: جبشيت.

الملك وجنده ولّوا هاربين، فجبشيت ما زالت تتباهى بإسمها وقد لحقتها معركة ودير قانون النهر والحلوسية وأنصار والخرايب والجبين والقرعون وكل القرى الأخرى، وقد علمت أن مؤتمراً للقرى عقد في حسينية البلدة اتخذ فيه قرار بتسمية كل القرى جبشيت.

الماء جبشيت، التراب جبشيت، الورد جبشيت.

الزرع جبشيت.

الحجارة جبشيت.

العلم جبشيت.

التاريخ جبشيت.

الشمس جبشيت.

الربيع جبشيت.

الحب جبشيت.

الشعر جبشيت.

الزيت المغلي جبشيت.

العبوات الناسفة جبشيت.

السماء جبشيت.

الوطن جبشيت.

إنه الزمن الجبشيتي.

ـ ١٩٨٣ ـ

ـ مدينة الأولي ـ

نصبوا حاجز «الأولي» لمنع تسرّب الهواء، أحاطوه بالسواتر والآليات لفصل الرأس عن الجسد، حذروا العصافير أن تطير أو تنام في أعشاشها، وعلّقوا يافطة تشبه وجه بيغن البشع «قف الحدود أمامك». نصبوا حاجز الأولي وصوّبوا رشاشاتهم نحو مياه البحر وحبّات الرمل والزبد، وعندما تمايلت أغصان شجرات الحور قطّعوها.

★ ★ ★

نصبوا حاجز الأولي ووضعوا فوق كل زاوية ومفرق جندياً وحارساً، ولكن «الأولي» ثار بوجههم، الطبيعة ثارت بوجههم لدرجة أن السماء أمطرت في صيدا وجوارها باستثناء دائرة حاجز «الأولي» مما دفع بعابري الجسر إلى القول بأن الإحتلال تلفظه الغيوم ويجلب القحط والعطش.

★ ★ ★

توهموا أن حاجز «الأولي» سيحجز الناس عن التواصل مع الوطن، سيمنع سفر الليمون والكريفون والفجل إلى العاصمة،

سيمنع الناس من الإنجاب، ظنوا أن الصمت سيلف القرى والسهول وأن الندى لن يعطّر وجه الفجر، ظنوا أن الرعاة سيختبئون مع غنماتهم فلا يصعدون إلى الجبال للرعي، ولن تُسمع أغانيهم، بل ستصاب الغنمات بالجدب وبدل الحليب ستفرز بقعاً صفراء، وسرطاناً قاتلاً.

* * *

ظنوا أن الليطاني والزهراني وأبو «زبلة» لن تفيض هذا العام، وأن شباب البلدة لن يقيموا الأعراس والدبكات واحتفالات الإستقلال والمولود والميلاد.

ظنوا أن نهار العيد لن تطير الصبايا بالمراجيح، وأن الأطفال والكبار لن يلعبوا «بالبنانير» على البيدر.

عمّموا على المخاتير منع إطلاق الفتيش والأسهم النارية، وهددوا المدارس بالإقفال إذا مورست لعبة كرة القدم أو الطائرة لأنها تشكّل خطراً على سلامة أمن الجليل. أن تطير كرة في الجو، أن يسمح بالركض لتسديد هدف، فهذا بداية أفول دولة إسرائيل.

* * *

ظنوا أن أبو علي إذا أنجبت زوجته فاطمة سيسمي طفلته شارونه أو عليزا، نصبوا حاجز الأولي متصورين أن جبل عامل مصاب بالربو العربي ويعاني من ضيق التنفس وإلتهاب في قشرة الدماغ، لكنهم صعقوا بالحقيقة فإذا بوجه حاجزهم تنتصب آلاف الحواجز، وأصبحت نجمات المقاومة الوطنية تطلع في وضح النهار بعدما كانت تظهر في الليل خلسة، صعقوا وأصيبوا بالجنون، فرغم حاجزهم

وكلابهم وآلياتهم وسياطهم، فإن أطفال الجنوب استمروا صباح كل يوم بإنشاد «كلنا للوطن» قبل الدخول لصفوفهم المدرسية.

صعقوا عندما مرّوا ببلدة الصرفند فإذا بالحجارة والأحذية والبيض تتكوّم فوق رؤوسهم.

أصيبوا بالخيبة عندما رأوا الحسينيات والمساجد مطرّزة بأيات جديدة تحث على مقاومة الاحتلال وتحرّم التعامل مع العدو.

* * *

مجلس الوزراء الإسرائيلي انعقد بصورة طارئة، فحاجز «الأولي» غير فعال، فانفجار البحر، إنفجار الحجر، إنفجار الماء، إنفجار التراب وانفجار الدم، إنفجارات تلاحقهم ولم يستطع حاجز «الأولي» حجز الأغاني ولا زقزقة العصافير وخرير المياه، لم يستطع صد جيوش النمل التي تسللت إلى أنوفهم وفوهات بنادقهم.

* * *

أمام حاجز «الأولي» ولدت مدينة جديدة، فتحت مقاه، ومطاعم وأوتيلات عشبية وشمسية، ناس «الأولي» حملوا «أغطيتهم» وافترشوا أرض شاحناتهم، شربوا النراجيل، قشّروا البطاطا، لعبوا الترنيب، أقاموا السهرات الجماعية والصلوات الجماعية، لم يغادروا الحاجز يومين... ثلاثة، لم يدبّ النعاس في جفونهم حتى أن إمرأة من تولين أنجبت على الحاجز، وبعض التلامذة كانوا يحفظون دروسهم على ضوء لهب صناديق الليمون.

سيمنع الناس من الإنجاب، ظنوا أن الصمت سيلف القرى والسهول وأن الندى لن يعطّر وجه الفجر، ظنوا أن الرعاة سيختبئون مع غنماتهم فلا يصعدون إلى الجبال للرعي، ولن تُسمع أغانيهم، بل ستصاب الغنمات بالجدب وبدل الحليب ستفرز بقعاً صفراء، وسرطاناً قاتلاً.

* * *

ظنوا أن الليطاني والزهراني وأبو «زبلة» لن تفيض هذا العام، وأن شباب البلدة لن يقيموا الأعراس والدبكات واحتفالات الإستقلال والمولود والميلاد.

ظنوا أن نهار العيد لن تطير الصبايا بالمراجيح، وأن الأطفال والكبار لن يلعبوا «بالبنانير» على البيدر.

عمّموا على المخاتير منع إطلاق الفتيش والأسهم النارية، وهددوا المدارس بالإقفال إذا مورست لعبة كرة القدم أو الطائرة لأنها تشكّل خطراً على سلامة أمن الجليل. أن تطير كرة في الجو، أن يسمح بالركض لتسديد هدف، فهذا بداية أفول دولة إسرائيل.

* * *

ظنوا أن أبو علي إذا أنجبت زوجته فاطمة سيسمي طفلته شارونه أو عليزا، نصبوا حاجز الأولي متصورين أن جبل عامل مصاب بالربو العربي ويعاني من ضيق التنفس وإلتهاب في قشرة الدماغ، لكنهم صعقوا بالحقيقة فإذا بوجه حاجزهم تنتصب آلاف الحواجز، وأصبحت نجمات المقاومة الوطنية تطلع في وضح النهار بعدما كانت تظهر في الليل خلسة، صعقوا وأصيبوا بالجنون، فرغم حاجزهم

وكلابهم وآلياتهم وسياطهم، فإن أطفال الجنوب استمروا صباح كل يوم بإنشاد «كلنا للوطن» قبل الدخول لصفوفهم المدرسية.

صعقوا عندما مرّوا ببلدة الصرفند فإذا بالحجارة والأحذية والبيض تتكوّم فوق رؤوسهم.

أصيبوا بالخيبة عندما رأوا الحسينيات والمساجد مطرّزة بأيات جديدة تحث على مقاومة الاحتلال وتحرّم التعامل مع العدو.

* * *

مجلس الوزراء الإسرائيلي انعقد بصورة طارئة، فحاجز «الأولي» غير فعال، فانفجار البحر، إنفجار الحجر، إنفجار الماء، إنفجار التراب وانفجار الدم، إنفجارات تلاحقهم ولم يستطع حاجز «الأولي» حجز الأغاني ولا زقزقة العصافير وخرير المياه، لم يستطع صد جيوش النمل التي تسللت إلى أنوفهم وفوهات بنادقهم.

* * *

أمام حاجز «الأولي» ولدت مدينة جديدة، فتحت مقاه، ومطاعم وأوتيلات عشبية وشمسية، ناس «الأولي» حملوا «أغطيتهم» وافترشوا أرض شاحناتهم، شربوا النراجيل، قشّروا البطاطا، لعبوا الترنيب، أقاموا السهرات الجماعية والصلوات الجماعية، لم يغادروا الحاجز يومين... ثلاثة، لم يدبّ النعاس في جفونهم حتى أن إمرأة من تولين أنجبت على الحاجز، وبعض التلامذة كانوا يحفظون دروسهم على ضوء لهب صناديق الليمون.

★ ★ ★

يستمر الصهاينة في نصب حـواجـز « الأولي » ينسحبـون مـن « أولي » إلى « أولي » يعتقلون مطلقي الأسهـم النـاريـة والفتيش في النبطية والنجمة والعقبية.. ينصبون الحواجز، يدنّسون المسـاجـد، يطوّقون القرى، يطلقون الرصاص، يغتالون الأشجار، فتكبر المدينة ويعلن مؤذن الجنوب الإعتصام المؤبّد، العصيان المؤبّد حتى إزالة حاجز « الأولي » والزهراني و« القاسميـة » و« بير السلاسـل » وكـل حواجز « الأولي ».

١٥ يوماً
في الجنوب المقاوم

تقطع السيارة مسرعة مثلّث خلده، فنغمض عيوننا من الخوف، أحد « الركاب » يخرق الصمت قائلاً:

- لقد تركت أولادي الأربعة يقاتلون في حي « السلّم » فليبقَ واحد منهم ويعيش بكرامة، فالضاحية ستبقى مخرزاً في عيونهم.

عندما وصلنا حاجز الأولي نظر إلينا الحارس الإسرائيلي بريبة، ثم أومأ للسائق بمتابعة السير، كان مدجّجاً بالسلاح من رأسه حتى أخمص قدميه، يداه، عيناه، قدماه كانت تتحرك جميعها بشكل آلي.

من الأولي تبدأ رحلة الحواجز، كل الطريق حواجز وأسلاك، فوق الجسور حواجز، في البحر حواجز، وعلى الطرقات الجبلية حواجز، ومع ذلك فقد أصيب بيغن « بخيبة » الأمل من اختراق رجال المقاومة الوطنية لهذه الحواجز.

عند حاجز الزهراني لم يعد الجنود يقفون على الطريق العام، لقد حفروا حفرة كبيرة، والسيارة التي ستخضع للتفتيش تهبط إلى الحفرة المحاطة بساترين ترابيين وخلف كل ساتر جندي يراقب برشاشه وكأن الموت جالس فوق ظهره!!!

عندما وصلنا إلى العقبية صعد إلى السيارة مواطن من الخرايب، فأخبرنا عن محاولة اغتيال أبو مشهور مسؤول الحرس الوطني في الزرارية، كان يتحدث بحماس حتى أنني شككت بأن يكون من عناصر المخابرات الإسرائيلية من شدة تطرفه في مهاجمة الإحتلال وعملائه.

حدَّقت فيه قليلاً، فعلا صوته:

ـ نحن لم نعد نخاف، سيأتي يوم تنسحب فيه إسرائيل من الجنوب، أطفالنا يلاحقون الدوريات الإسرائيلية بهتافات «إسرائيل شر مطلق».

ـ وكيف حدثت العملية يا عم؟

مساء الثالث عشر من أيلول الماضي وبعدما غادرت زمرة الحرس الوطني منزل «أبو مشهور» حوالي الحادية عشرة ليلاً، نزل أبو مشهور ليغلق بوابة منزله الحديدية مطمئناً لسكون الليل، خلع بدلته العسكرية وحاول سقاية حديقة داره المسوَّر بجدران عالية، ولم يكد يفتح حنفية الماء حتى اخترقت جسده رصاصات رجال المقاومة الوطنية، سقط نبريش الماء من يديه، ثم هوى أرضاً، لم يسارع حراسه إلى مساعدته رغم أزيز الرصاص، فقد دبّ الرعب في قلوبهم، وبعد حوالي الساعتين حطّت طائرة «هليوكبتر» إسرائيلية نقلت أبو مشهور إلى فلسطين المحتلة وآخر الأنباء تقول إنه أصبح مشلولاً والبعض قال إنه مجنون. إنه مصير كل الجواسيس.

ـ وماذا حدث في البلدة؟

لقد كان عيداً حقيقياً عند شيوع نبأ إغتياله، لقد أدخل إلى معتقل أنصار أكثر من أربع مئة شاب، كان يمنع التجول في البلدة، وأحياناً يسجن المواطنين في خم الدجاج، وإذ ذهب أحد أبناء البلدة

إلى بيروت فإنه يستدعيه ويحقّق معه إلى أين ذهب ومع من اجتمع وأنه في المرة القادمة يجب أن يطلب إذناً قبل مغادرة البلدة!!!

كما فرض الخوات على أصحاب البساتين والمحلات التجارية والسيارات والبغال أيضاً... وهي كالتالي:

البستان: مئة ليرة.

الدكان: خمس وعشرون ليرة.

وحاول أبو مشهور التدخل بحياة الناس الشخصية فمنع إرتداء الفتيات بعض الملابس لتضليل أهالي البلدة بمظهر العميل «المتدين».

واليوم أصبح أزلام «أبو مشهور» يتجولون على الطرقات بهلع وأكثر ما يخافون في الليل من الدوريات الطائرة. بعضهم غادر البلدة وسافر إلى الخارج بعدما تلقّى تهديدات من المقاومة الوطنية، ومرة وجد أحد العملاء رسالة إنذار من المقاومة الوطنية تحت باب منزله، فخرج إلى ساحة البلدة يستغيث صارخاً: أنا لا علاقة لي بالحرس الوطني.

★ ★ ★

عندما وصلنا إلى مفرق «أنصار» خفَّف السائق سرعته بسبب وجود حاجز إسرائيلي.

على جانبي الطريق جثث أشجار الليمون والحامض المحروقة ما زالت شاهدة على «حضارتهم». ففي هذا المكان تعرضت قافلة إسرائيلية لكمين مسلَّح، وعندما مررنا بالحاجز لم يكن يتواجد فيه أي جندي، فقال أحد الركاب بأن هناك عدة حواجز مماثلة، فبعد تزايد العمليات الفدائية صار الجنود الصهاينة يخافون حتى الظهور ويختبئون وراء أكياس الرمل، وهذه الحواجز هي لعرقلة حياة

المواطنين وإيهامهم بوجود مراقبة إسرائيلية.

* * *

نصل إلى مفرق الزرارية فيشير محدثنا إلى مكان العملية البطولية التي أدت إلى مقتل وجرح أكثر من عشرين إسرائيلياً، فأماكن العمليات الفدائية أصبحت أشبه بأماكن مقدسة عند الجنوبيين، وإذا لمحت طائرة هليكوبتر في السماء يقول لك الأهالي بعفوية: «الطائرة ذاهبة لنقل الجنود الجرحى في إحدى العمليات». عندما عبرنا جسر القاسمية أوقفنا الجنود، فنظرت إليهم جيداً، يبعد الواحد عن الآخر عدة أمتار وهو متحفز لإطلاق الرصاص عند أدنى حركة.

على حائط مفرق أبو «مرهج» شعار بخط عريض: «تحية إلى الأسرى اللبنانيين والفلسطينيين في معسكر أنصار».

أما في الشبريحا فهناك يافطة كتب عليها: «الجنوب في خطر، الوطن في خطر».

عند مفرق «جل البحر» يافطة أخرى: «لبنان بدون جنوبه أسطورة». وعندما وصلنا إلى صور كنا قد مررنا على أكثر من ثلاثين حاجزاً من خلده وحتى صور، ناهيك عن الحواجز الطيارة وتلك التي ستمر عليها على مداخل القرى والمدن الجنوبية، بالإضافة إلى الحواجز العسكرية الإسرائيلية هناك حواجز الإهمال، فالطرقات تتسع الحفر فيها يوماً بعد آخر لدرجة ترى العديد من السائقين متوقفين يستبدلون دواليب سياراتهم على الطريق العام والطرقات الفرعية.

* * *

وصلنا القرية، وبعد استراحة قصيرة نزلت مع أبو خليل أحد عمال الرش إلى البستان الذي يعمل فيه، بستان تبلغ مساحته حوالي مئة وخمسين دونماً، عندما تتجول في أرجائه تشعر وكأنك وسط غابة من الأشواك والحشيش.

ـ لماذا هكذا؟

ـ أغلبية الملاكين أحجموا عن نكش أو تقصيف بساتينهم واكتفوا برشة واحدة، رغم أن المطلوب رشتين.

تدخَّل عامل آخر في الحوار:

ـ المواسم السنة الماضية بارت بسبب الثلج ومزاحمة البضائع الإسرائيلية وهذه السنة الناس خائفة من إغلاق الحدود وبوار المواسم أيضاً.

ومئات العمال يشكون البطالة، ففي بلدتنا كان يوجد عشر ورش لقطاف الليمون أما اليوم فلا يوجد فيها أية ورشة، فالبطالة تعم القطاع الزراعي ولولا موسم الرش لكنا جالسين في بيوتنا.

فلم ألتقِ مع عامل أو ملاَّك إلا وحدثني عن الكارثة الإقتصادية الناجمة عن الإحتلال الصهيوني الذي يغرق السوق الجنوبية بالبضائع الإستهلاكية، كما يعاني صيادو الأسماك من عراقيل عديدة: من مطاردة زوارق الطوربيد الإسرائيلية وفترات منع التجول، بالإضافة إلى السمك الإسرائيلي المعروض بكثرة في المنطقة مما يهدّد عشرات العائلات الصورية والصيداوية بالجوع والتشرّد.

* * *

نزلت في اليوم التالي إلى مدينة صور، فترجلت من السيارة قرب فرع مصرف لبنان حيث تطالعك يافطة مكتوب عليها: «أنصار الجيش» وأمام مدخل المقر تجد نساء عدة يسألن عن أزواجهن وأولادهن المعتقلين في «أنصار» وقد أخبرني أحد المواطنين بأن المدعو طالب سبليني المساعد الأيمن لمسؤول التجمع الجنوبي في صور يمارس إبتزازاً مالياً من الأهالي بحجة الإفراج عن أولادهم، فكم من إمرأة باعت حلّيها وكل ما حوّشته في حياتها لقاء وعد بالإفراج عن ولدها أو زوجها، إلا أنها تكتشف أخيراً أنها تعرضت لخدعة، وقد تعرضت بعض نساء المعتقلين إلى مضايقات شخصية من زمر الحرس الوطني.

أكملت سيري في أرجاء المدينة، فمررت من أمام نادي التضامن، وفجأة سمعت طلقات رصاص غزيرة.

أحد المواطنين تأوه أمامي قائلاً:

ـ هذا ليس غريباً علينا، فإطلاق الرصاص يتم بشكل يومي من قبل عملاء الإحتلال، يشتمون الناس، يفرضون الضرائب، أنظر لقد أعطبوا ثلاث سيارات واعتقلوا سائقيها (١٤ أيلول ١٩٨٣).

وفيما هو يحدثني سمعنا دوي طلقة أخرى، فاقتربت من موقف السيارات فإذا بشوقي العبدالله مسؤول «التجمع الجنوبي» يحمل مسدساً ويشرف بنفسه على تنظيم السير لأن دورية إسرائيلية اعتقلت مطلقي النار في محاولة لإيهام الناس بأنها لا ترضى بالتجاوزات.

غادرت المكان خوفاً من تطور العراك لشراء الصحف من مكتبة أبو نزار حيث تطالعك في أول شارع المنشية يافطة: «صور باقية ـ

صامدة».

لم أستطع الدخول إلى المكتبة بسبب الإقبال الكثيف على شراء الصحف، إلا أن ما استرعى انتباهي هو أن المجلات الوطنية هي الرائجة، فبيروت المساء معلّقة في الواجهة، وعندما سألت عن النداء قال لي بأنها تنفذ باكراً، أما السفير فخلال نصف ساعة لا تجد أثراً لها، وعندما منعت السفير بسبب مصادرتها من قبل الميليشيات سمعت مواطناً صورياً يصرخ: إمنعوا صحفهم أن تأتي إلى هنا، نحن نريد السفير.

كما التقيت في طريقي أحد الأصدقاء القدامى وعندما سألته عن الوضع في المدينة قال:

ـ منذ أسبوعين دخل ثلاثة مقاومين «مقنعين» أحد المقاهي وأطلقوا النار على أحد أبرز عملاء الإحتلال في المنطقة ويدعى عبدالله سويدان من بلدة الكنيسة، وعندما سقط أرضاً قال أحد المقاتلين لرواد المقهى: «هذا هو مصير العملاء».

وتابع أبو إسماعيل: إن مقتل العميل سويدان وقبله «جندل» وإصابة «أبو مشهور» وأخيراً وليس آخراً مصرع «حسين جضه» هو ما يثلج قلوبنا.

إن تصفية هؤلاء أدخل الخوف إلى نفوس أمثالهم فسابقاً كانوا يركبون السيارات العسكرية ويصعدون في وضح النهار إلى مقر الحاكم العسكري في مدرسة الشجرة بالبص، أما اليوم فإنهم يتحركون خلسة ويجتمعون في أماكن مهجورة.

ـ وردة الفعل الإسرائيلية؟

ـ ليس أمام إسرائيل سوى شن الإعتقالات لتشجيع العملاء الباقين وإظهار الحرص على حياتهم، ففي ١٥ الشهر الماضي نفّذ

رجال المقاومة الوطنية عملية جريئة في بلدة معروب، فما كان من قوات الإحتلال إلا أن طوّقت بلدات معروب ـ باريش ـ صريفا، واعتقلت العشرات من الشباب.

ـ ولكن ماذا كانت النتيجة؟

لقد تظاهر أهالي باريش، فاعتصموا في النادي الحسيني لمدة ثلاثة أيام، حتى أفرجت القوات الإسرائيلية عن المعتقلين، ونفس الشيء جرى في العباسية حيث اعتصم الأهالي بالحسينية رداً على اعتقال عدد من شباب البلدة، فحالة الناس تغيَّرت كثيراً منذ بداية الإجتياح، ففي المرحلة الأولى كنا نخاف وكل شخص يفكر بنفسه، أما اليوم فإذا اعتقلوا مواطناً واحداً فإن كل أهالي البلدة يهبّون كرجل واحد، فالمقاومة الوطنية رفعت معنويات الأهالي وكسرت حاجز الخوف، كما أنه بسبب العمليات نادراً ما ترى دوريات العدو تتجول، وقد لاحظنا أنهم يرتدون الزي المدني ويتجولون بسيارات مدنية مع عملائهم تفادياً للعمليات الوطنية. ولمواجهة هذه المقاومة المتنامية تلجأ إسرائيل إلى أساليب متنوعة لإضعاف وحدة الجنوبيين، ففي منطقة صور قام مسؤول المخابرات الإسرائيلية «أبو النور» بسلسلة إتصالات مع بعض الشخصيات الصورية بهدف تزويدهم بالسلاح لمواجهة «القوات اللبنانية» التي تحضّر لمذابح ضد الشيعة، ونفس الشيء يحدث في بلدة الخيام وبعض القرى الجنوبية، ففي بلدة رشاف المهجّرة يمنع مسؤول الميليشيات عقل هاشم الأهالي من دفن موتاهم، ومنذ حوالي الأسبوعين أطلقوا النار على جنازة كانت متوجهة لدفن أحد مواطني البلدة.

وعن المواجهة قال لي أحد الوطنيين:

في كل نشاطاتنا ندعو الأهالي إلى مقاومة الإحتلال على كل الصعد ونبذ كل الخلافات العائلية والشخصية لأنها تصدّع وحدة أهل القرية، وأثناء اللقاء دخل أحد مخاتير الجنوب وعندما علم أنني صحافي قال لي: «أين المساعدات لمهجري الجنوب، فالآلاف نزحوا من الضاحية وبيروت وبعضهم ينام مع أولاده تحت أشجار الزيتون، ورغم مجيء الدرك وتسجيل أسماء المهجرين فإننا لم نرَ شيئاً».

خمسة عشر يوماً قضيتها في الجنوب طبعت في ذهني قناعة راسخة بأن هذا الجنوب ستنطلق منه مقاومة ثورية ستجعل الأرض تلتهب تحت أقدام الغزاة. وكنت أود البقاء أكثر ولكن الحذر من تجديد اعتقالي ونصح الأهل دفعنا للمغادرة.

١٩٨٣/١٠/٢٤

الفارس الجنوبي
يقتحم « الأولي »

عندما أغلقت القوات الصهيونية حاجز الأولي طلبت « فيزا » من كل مواطن سيدخل الجنوب حفاظاً على أمن سلام الجليل وربما أمن البيت الأبيض والإليزيه والأطلسي وحتى أمن زيمبابوي في إفريقيا.

نهر الأولي أصبح خط التماس « العالمي »، منه ينطلق « الإرهاب » الجنوبي لتدمير دولة شعب الله المختار، بل قيل إن كارلوس والجيش الأرمني السري ومنظمة الباكس والجيش الأحمر الياباني وبادر ماينهوف قد عبروا النهر بزوارق بخارية وهم يتخذون بعض مغاور الجنوب كمائن لشن العمليات « الغادرة » على جيش الدفاع الصهيوني الذي جاء « لإنقاذ » الجنوبيين.

لهذا السبب وتداركاً للكارثة المحدّقة أغلقت إسرائيل حاجز الأولي وطلبت فيزا من المواطنين - فيزا من المياه الجارية في النهر، حتى أن « سلطعوناً » تمرّد على هذه الإجراءات فعضّ جندياً إسرائيلياً فمات على الفور مما دفع قوات الإحتلال إلى « تنشيف » النهر من المياه وكلما أطلّت نقطة ماء برأسها ثقبوا جسدها بوابل

الرصاص.

على حافة النهر نبتت أعشاب خضراء، كان الصيداويون والبيروتيون يقضون الآحاد فوقها ـ يشوون اللحوم ويشربون الأراكيل ويسبحون ويختلون ووو..

عندما علم حاجز الأولي، استنفر وأنشأ سجناً للأعشاب الخضراء واستجوبوها عن أسماء رواد النهر، وماذا كانوا يفعلون وهل سمعوهم يلفظون إسرائيل؟

الأعشاب رفضت الإجابة، فعرّى إحداهن من ثيابها وقطّع نهديها واتخذ قراراً بجرف النهر والأرض إذا نبتت أعشاب خضراء!!!.

ويستمر «الإرهاب» الجنوبي في عبور النهر الذي لم يعد نهراً، فاتخذت قيادة الحاجز إجراءات جديدة، وقام الضابط المسؤول بمعاونة بعض الجنود بتطويق أشجار الحور والسرو المحيطة بالنهر.

ـ أنتِ أيتها الشجرة العجوز، من الذي كان يتسلّق أغصانك البارحة؟

رفضت الشجرة الكلام، بصقت على وجه الضابط، فشب حريق كبير التهم خيمة الحراس، فاستدعيت قوات إضافية وحلّقت طائرات الهليوكبتر في جو النهر، فوجهوا صواريخ «بيرشنغ» على أعشاش العصافير الهادئة في أحضان السرو والحور، وعندما سأل أحد الصحافيين شامير لماذا إبادة العصافير والجلابيط، أجابه بأن: «المخربين» عناصر المقاومة الوطنية هم مجموعة من السحرة يتقمصون شكل العصافير ورؤوس البطيخ، ومرة لسعت نملة صورية رأس جندي فقتلته فوراً»!!!

استمر «الإرهاب» الجنوبي في مقاومة الإحتلال بالحجارة، بالرايات السود، بالشعارات، لدرجة أن حالة الرعب التي طوقت

قوات الإحتلال أدت إلى إرتطام آلياتهم بأعمدة الكهرباء، ومرة تدهورت شاحنة قرب مفرق الزرارية عندما عوى كلب ففزع الجندي السائق وأصيب بنوبة قلبية.

التظاهرات داخل إسرائيل تتصاعد، وأهالي الجنود أعلنوا يوم حداد، فطالبوا قادتهم بالإنسحاب من وادي الدموع «الجنوب».

واستمرت الضربات لقوات الغزو متتالية، معسكرات الجيش الإسرائيلي محاصرة، محظور عليها التنقل، أطفال القرى والمخيمات يصنعون كلاشنات خشبية ويرسمون الأعلام اللبنانية والفلسطينية بالفحم والتراب والماء، كما نظموا قصيدة «يا إسرائيلي يا إبن الكلب مين جابك عا أبواب الحرب». أما معتقلو أنصار فقد حفروا أنفاقاً تحت الأرض وحاكوا من خيم قهرهم طائرات شراعية ومناطيد، أحد الخبراء العسكريين رفع تقريراً لقيادته أن النفق لو استمر الأسرى في حفره لاستطاعوا الوصول إلى مقر الكنيست الإسرائيلي وأخذوا رئيس الحكومة رهينة للإفراج عنهم، وقد تكون أهدافهم أكبر.

سلطات الإحتلال أصيبت بهستيريا التوحش، فاتخذت قراراً بإغلاق كل المعابر ـ الخط العام ـ خط النهر ـ سكة الحديد، كما زرعوا قنابل موقوتة من السم لمنع تسلل الهواء الى الجنوب.

هكذا صاح قادة إسرائيل: أغلقوا كل المعابر، فجروا البيوت المهجورة، إجرفوا البساتين، عقّموا الرجال والنساء، حاصروا القرى وحصّنوا معتقل أنصار بالإسمنت المسلّح كي لا يفرّ المعتقلون.

عصام لم يأبه لهذه الإجراءات، فمن هم بنو صهيون إزاء أهالي جبل عامل؟ ألم يقرأوا التاريخ جيداً؟ ألم يسمعوا بصادق حمزة وأدهم خنجر والشيخ نصار؟ وبجبل عامل، جبل الثوار، جبل

المقاومة الوطنية، لا يمكن أن يركع لقادة صهيون، سأعبر الجسر بدون تصريح.

عصام إبن الجنوب البالغ من العمر خمسة عشر عاماً صمّم على تحدي غطرسة العدو.

ـ سأعبر الجسر بدون تصريح.

غادر قريته ممتطياً جواده نحو الأولي ـ كانت السيارات مصلوبة حتى ساحة النجمة في صيدا، بعض السواقين ناموا ليلتهم على الطريق منتظرين «رحمة» الحاجز والبعض غامر بحياته فقطع البحر سباحة.

وصل عصام قرب الحاجز، سمع إمرأة تصيح: واعرباه، واخجلتاه.

فاقترب منها قليلاً:

ـ ما بك يا أماه؟

أعطاني الحاكم العسكري تصريحاً بالمرور وعندما وصلت إلى هنا رفض أفراد الحاجز السماح لي لأن الجنين الذي في بطني يحتاج إلى تصريح ـ بل كما أخبروني أنه نادراً ما يسمح للنساء الحوامل بالمرور.. لأنهم يظنون أن نساء جبل عامل يلدن البنادق!!

بلع عصام ريقه وربت على كتف المرأة:

ـ الصبر، الصبر يا أماه!!

ـ أنظر لقد بدأوا بإطلاق الرصاص ـ وأفلتوا الكلاب البوليسية على المواطنين.

لم يتمالك عصام أعصابه ـ لقد بلغ السيل الزبى فشد رسن جواده الذي أطلق صهيلاً أشبه بالرعد في ليالي كانون.

الجواد يصهل ويصهل ـ أما عصام فقد تناول قنبلة يدوية ورشق بها عناصر الحاجز وهو يصرخ:

ـ سأعبر الحاجز بدون تصريح أيها الغزاة!!

فر جنود الحاجز والجواد يصهل وعصام يحث المواطنين على عبور الجسر، فحلّقت طائرة «إف١٦» وقصفت الجواد ولكن الجواد ما زال يصهل وعصام يصرخ. اقتحم الجواد الحاجز إلى الضفة الأخرى بدون تصريح إلا أن عصاماً أصيب بشظية برأسه فتمدّد على ظهر الجواد الذي علا صهيله، فنفض قوائمه التي تحولّت إلى أجنحة، فطار في جو النهر، في جو الدم حاملاً جثة عصام إلى إحدى معسكرات جبهة المقاومة الوطنية.

١٥-١١-١٩٨٣

حكايات جنوبية

« الليمونة المهترئة »

رمى أحمد ليمونة على الطريق العام بين صيدا وصور لحظة مرور دورية لجيش الإحتلال الصهيوني.

دب الرعب في صفوف الدورية، « فقطعوا » الطريق ومشطوا البساتين بحثاً عن قاذف الليمونة. أما أحمد فقد استمر في عمله يفرغ السلال لتوضيب « نقلة » إلى الزهراني. لم يدر أن الليمونة قد زلزلت أعصاب جنود العدو الذين ما برحوا يفتشون عن قاذف الليمونة.

وفيما أحمد « يجمع » الليمون « السقط » سمع صوتاً:

ـ قف إرفع يديك.

ـ ماذا تريدون؟

ـ مخرب، تتظاهر بالعمل، أين خبأت السلاح؟

دهش أحمد من هذا الإتهام.

ـ إنني عامل قطاف وتستطيعون التأكد من صاحب البستان.

ـ منذ عدة ساعات وجدنا ليمونة على الشارع العام هل تعرف من

رماها ؟

ـ ليمونة.. أنا رميتها.

ـ ولماذا ؟

ـ أردت أن أمصها فوجدتها مهترئة مما دفعني لقذفها إلى الشارع.

ـ أنت كذاب، تتمرن بالليمونة لإلقاء القنابل. أنت مخرّب. مطلوب للتحقيق.

* * *

أخضع أحمد خمس ساعات للتحقيق ولم يفرجوا عنه إلا بعد كسر عظمة أنفه من الضرب والتعذيب.

هذه الحادثة ليست من اختراع الخيال. إنها غيض من فيض مما يجري في الجنوب، جنوب المقاومة الوطنية اللبنانية، هذه المقاومة التي جعلت جنود العدو يرتعدون خوفاً من ليمونة عفنة. من كيس نفايات.. هذا الجنوب عندما تذهب إليه اليوم تشعر بالزهو وأنت تستمع إلى أحاديث الناس، كل الناس، كهولاً وأطفالاً ونساء. الكل يتحدث عن مقاومة الاحتلال. وإن كنت قادماً من بيروت يسألونك عن الضاحية، وبيروت والجبل ومعنويات الشباب.

* * *

« مشحَّر »

في بلدة الزرارية دهمت قوة صهيونية منزلاً لاعتقال شاب يُدعى علي. وعندما انفتح باب منزله وجدوا والدته العجوز.

ـ نريد علياً.

علي كان نائماً. فصرخت أمه: « يا مشحَّر أوم ».

عندما سمع مسؤول الدورية كلامها قال:

ـ لا نريد « مشحَّر » بل علي، وغادر القرية.

* * *

« النقيفة »

دخلت إلى مدرسة برج رحال الرسمية، تحدثت مع أحد مدرسيها، فأخبرني أن القرية وكل القرى تنتظر المواجهة مع العدو، وما جرى في معركة سيتكرر مرة ثانية وعاشرة، أرادوا بإرهاب معركة إرهاب الجنوب ولكنهم خسئوا، كل الجنوب أصبح معركة ويوم تظاهرنا تضامناً مع « معركة »، أعطينا الأوامر لكل تلاميذ المدرسة بأن يجهزوا « نقيفات » لرشق جنود العدو بالحصى إذا ما حاولوا اقتحام القرية. سنتجاوز الفيتناميين بأساليب نضالنا أيها الصديق.

وأكمل حديثه قائلاً: ما زلنا في بداية الطريق ونتوقع أن يشن العدو حملات بطش أكثر وحشية مما جرى في معركة والحلوسية.

ـ أنظر إلى طائرات العدو الحربية، غارات وهمية يومياً وفي الليل يفرشون المنطقة بالقنابل المضيئة إننا نتوقع إنزالاً في كل لحظة.

ـ إنزال؟!

ـ نعم إنزال، فالعدو بعد المواجهات البطولية لأهالينا لم يعد يقوى على تطويق القرى بالدبابات، بل لجأ إلى أسلوب « الإنزالات » الجوية، وما جرى في معركة هو بداية الغيث، نحن يا صديقي نعيش اليوم بدايات الإجتياح في صيف ٨٢.

ـ والعملاء ؟

ـ إنهم يهربون كالأرانب إلى بيروت، وبعضهم سافر إلى الخارج. وهناك خمسة منهم اعتقلهم « الدايخ » في جويا لأنهم حاولوا الهرب. باختصار العملاء يعدون على أصابع القدمين، بل أكثر من ذلك فإن ضباط العدو وجنوده يرتدون الملابس المدنية ويتجولون بالسيارات اللبنانية وإذا أرادوا اعتقال مواطن ما فيخطفونه عبر الحواجز الطيارة لتلافي المواجهات الشعبية.

★ ★ ★

« العملية »

في اليوم الأخير لزيارتي البلدة، نمت باكراً لأن السائق سينطلق بنا إلى بيروت الساعة الرابعة فجراً.

الساعة العاشرة ليلاً أنيرت اللمبات الكهربائية في منزل (...) ولم أسمع سوى كلمة « عملية ».

الكل نهضوا من أسرتهم وأخبروا بعضهم بالعملية: هل سمعتم الرصاص، إنهم رجال المقاومة الوطنية.

وتعود العائلة لإكمال السهرة من جديد ويتحدثون عن « العملية »

آملين أن يكون قتلى العدو « كتار ».

فأخبار العمليات خبز الناس اليومي.

« سبت العباسية »

تذهب إلى بلدة العباسية لحضور محاضرة في حسينيتها بدعوة من اللجنة الثقافية للجمعية الخيرية في البلدة، أحد أعضاء الهيئة الإدارية حدثني قائلاً:

ـ في ظل الإحتلال تزدهر الثقافة ـ نحن هنا كل سبت عندنا محاضرة ـ تاريخية ـ ثقافية ـ إجتماعية ـ طبية، وهذه الخطوة هي الوحيدة في الجنوب اليوم ـ وسنحاول تعميمها لتشمل كافة القرى الجنوبية ـ لكن ما نطلبه هو دعمنا إعلامياً ـ فلماذا الصحف، وتحديداً الوطنية منها، لا تغطي أخبارنا ونشاطاتنا ـ أم أن أفلام الجنس وتحقيقات الفجل والبصل أفضل؟ لماذا لا يأتي « المثقفون » في بيروت للتحدث من على منبرنا ؟

وأضاف: قل لهم أن يرتفعوا إلى مستوى صمودنا فمثلما يحمل المقاومون الوطنيون اللبنانيون السلاح لمقارعة العدو نريد شعراء وكتاباً ومثقفين لا تقل كتاباتهم تأثيراً على العدو من طلقات الرصاص، نريد شعراً وأدباً بمستوى رصاصات المقاومة الوطنية اللبنانية.

« أنصار »

تغادر الجنوب فتشعر بالخجل وأنت تودع الأهل والأصدقاء .

ـ تعالوا إلى الجنوب، هاجروا إلى الجنوب ـ نحن هنا نكتب تاريخ لبنان الحقيقي .

وينطلق بنا السائق ونمر بمفرق « أنصار » .

ـ هنا حدثت « عملية »... أنظر كيف جرفوا البستان، كلما رأيت بيتاً مهدماً أو حفرة كبيرة ـ فهذا يعني أنه في هذا المكان نفذ الشباب عملية ـ إنهم ينتقمون من الأشجار والحجارة ومن شدة خوفهم يشتبكون مع بعضهم أحياناً .

آخ يا أبو حسين بدك تذكرني بمعتقل أنصار .

ـ سنمر من أمام المعسكر .

ما أن اقتربنا من بلدة أنصار حتى غبت عن الوعي تخيلت نفسي يوم كنت داخل الباص معصباً ويوم غادرته أيضاً معصباً ـ أما الآن ـ فعيناي طليقتان .

ما أجملك يا أنصار ، صبية تناهز العشرين ترتدي تنورة من ورق « العريش » يغطي شعرها الفضي منديل من التبغ .

كانت واقفة مبتسمة تلوح بيديها الزيتونيتين: أهلاً بكم في أنصار ..

توقفت السيارة أمامها ـ ومن لا يستطيع أن يتوقف ـ حتى طائرات العدو تحاذر الإقتراب كي لا يجذبها مغناطيس أنصار. أطلت بقامتها الرقيقة من الشبابيك ـ حدَّقت فينا جميعاً ـ رمقتنا بعينيها، غمزتني وكأنها تعرف أني من أنصار.

ـ كيف حالك أيتها الصبية؟

ـ نحن هنا في عرس يومي ـ نغني، ندبك، نطير، فلماذا تغادرون محلتنا ـ دعوا هؤلاء الأطفال يكبرون هنا ـ دعوهم يتعلمون في مدارسنا ويلعبون ـ ثم سألتنا فيما إذا كنا عطشانين.

ـ نكاد نموت.

شربنا من ماء أنصار حتى أن أطفالي الثلاثة سكروا من حلاوة الماء وناموا وعندما طلبت منها أن أغتسل بهذه «الماء» ابتسمت فعلمت أنها موافقة.

ـ هل تسمحين لنا بالدخول؟

ـ لما لا! «أنصار» ترحب بكم، إشربوا من مائها، وكلوا من تينها، ولوزها، ولكن عندما تدخلون «مزارها» غنوا نشيدها الوطني. صارت السيارة تحبو نحو «المعسكر».

ـ تذكرت رقمي والخيمة والصحن والعدد والمختار والشاويش تذكرت العصا.. والرفاق و و...

حدَّقت كثيراً بمحيط المعتقل، علَّني ألمح أحدهم ـ كنت تسمع أصواتهم مثل «تكتكات» الحساسين ـ قلت في نفسي: لا شك أنهم الآن ينحتون الحجارة ويلعبون بكرة القدم ـ وغرقت في التفكير ـ أتخيل أعمدة اللهب وهي متصاعدة من المعتقل، كيف حفروا نفق الحرية بأظافرهم.

رأيتهم مجموعات صغيرة يتجهون نحو الوادي وطائرات الهليكوبتر تطاردهم.

رأيتهم يصلون ويغنون ويتعلمون وينتفضون.

ـ أنظر وادي جهنم، هناك حدثت المجزرة.

في وادي جهنم تسمع صوتاً رقيقاً يناديك: صور الأبطال الأربعة تتمايل على صفحة التراب.

أجباب البلان احمرت من دمهم، حتى أني لمحت فراخاً من البط تسبح في بركة قريبة من الوادي، وفي إحدى الزوايا رجل يرتدي ثوباً أبيض يغرس الورود.

ـ من هو ذاك يا أبو حسين؟

ـ إنه عباس أحد الذين استشهدوا ـ رفض أن يأخذوا جثته إلى مسقط رأسه، ولا يستطيع أحد أن يقترب منه. عندما أصبحنا في آخر أطراف المعسكر طلبت من السائق التوقف لنرتاح قليلاً.

ـ أنظر يا أبو حسين ما زالت أعمدة الدخان واللهب تتصاعد من أنصار.

٣١ آذار ١٩٨٤

الحلوسية

سموها قرية نائية وعندما كان أهاليها يطالبون بمدرسين لتعليم أبنائهم كانت الدولة تحن عليهم ببعض المتعاقدين. الحلوسية قرية «نائية» بعرف «الطواويس» و«البكوات»، يذهبون إليها كل أربع سنوات مرة، فيسألون عن الكبير والصغير و«المقمَّط» بالسرير. لم تكن الحلوسية بنظرهم قرية من البشر.. ولماذا يتعلم أطفالها طالما أن إبن البيك سيتعلم نيابة عنهم!

الحلوسية ـ طرفلسيه ـ الحميره ـ معروب ـ باريش ـ جناتا ـ أرزون ـ برج رحال ـ بدياس ـ قرى يابسة مكتومة، أهاليها فلاحون فقراء يجلبون البيض والصبار لأولاد البيك ولأولاد أولاده في نهاية كل أسبوع. الحلوسية ليست قرية، إنها مزرعة، ناسها مصابون بالبكم والشلل، كما يظنون.

* * *

لكن الحلوسية صممت على مغادرة كهف «البيك» وأسلاكه. قررت الخروج من مغارة الإحتلال، فركبت زورقاً من نيل في إحدى ليالي كانون الثاني نحو النهر، تعرَّت أمام الله وأشجار الحور،

فركت جسمها بحامض الليمون، ثم استلقت تحت الشمس، صعدت مشياً إلى البلدة وأثناء سيرها سمعت أحد الرعاة يغني لحبة الزيتون وشتلة التبغ.

عندما وصلت البلدة تحدثت مع رفيقاتها من القرى النائية:

ـ لقد اغتسلت بماء النهر وشلحت ثياب الكهف وحرقتها، فتعالين أيتها الرفيقات نغيّر ثيابنا، نبدّل جلدنا الأصفر، تعالين نتعلَّم حروف الأبجدية.

تعالين نمارس النطق ونمشي في الهواء الطلق.

تعالين نخلع حجاب الموت ونقطف لوزنا وتيننا، ونمشط شعرنا بالحجارة.

تعالين نحمّر شفاهنا من توتة البلدة ونكحّل عيوننا بالمردكوش والنعناع.

تعالين نغازل الشباب ونأكل التبولة في وادي «الغوار».

ـ ما أصابك يا حلوسية، هل أصبحت مجنونة؟ والبيك والإحتلال؟

قهقهت الحلوسية بصوت عال:

ـ قررت الخروج من مغارة الذل والخنوع سأغني وأرقص وأتبرَّج.

فأنا عشتروت هذا الزمن وأميرة العرب، سأمشي مرفوعة الرأس، سأدخل المدرسة وأكتب رسائل الحب إلى عشيقي وأقضي الليل خارج البيت. وهناك رحلة جماعية للتزلج فوق الشوك والمسامير، فإن وافقتن فكن جاهزات صباح الغد.

* * *

صباح الغد خرجت الحلوسية عارية، دهنت جسدها الأسمر بشراب الرمان، ووضعت على شعرها شكلة من حطب الخروب، وارتدت صدرية من الكوكع والدفلى. كانت ترتدي بنطلوناً حاكته من رماد المواقد وفي يديها منجيرة مرقَّطة بلسعات السجائر، اتجهت الحلوسية نحو الحسينية.

زلمة البيك صرخ:

ـ يا للفجور، يا للعار، لقد دنست الحسينية، هلموا لنرجمها.

الحلوسية دخلت الحسينية، اشرأبَّت بعنقها كالغزالة فتحت المذياع وبدأت تعزف على المنجيرة لحن الأرض. أهل البلدة تجمعوا على الساحة، القرى المجاورة استفاقت على صوت الحلوسية وهي تغني، ظنوا أن في البلدة عرساً. إرتدوا ثيابهم بسرعة، بعضهم امتطى حصانه والبعض ركب الدراجات الهوائية. وآخرون مشوا سيراً على الأقدام، كل القرى المجاورة ـ النائية اتجهت إلى الحلوسية.

وصلوا الساحة فيما كانت الحلوسية تغني وتهتف: البيك وزلمه هرولوا مسرعين.

ـ أحرقوا البيوت والزيتون والتين.

لكن الحلوسية استمرت بالغناء والقرى تتقاطر على الساحة.

وصاح البيك ثانية:

ـ أخرسوا هذه الفاجرة وعصّبوا صوتها، وإذا خالفتكم أطلقوا النار عليها، فلا تدعوها تغني، وصادروا منجيرتها.

صوت الحلوسية يتصاعد، وصدى صوتها رددته الوديان والطيور. أجاب البلان انتشت فرحاً، الدحنون صار يزغرد عطراً

وأهالي القرى ما زالوا يتجمعون، عيونهم تغص بالحماس. أقاموا دبكة في الساحة وبدأوا يغنون مع الحلوسية بينما أم علي ترش القمح والتراب على رؤوس المبتهجين.

كل القرى زحفت نحو الحلوسية. كل القرى قررت الإغتسال بماء النهر.

كل القرى قررت مغادرة الكهف وتعلم حروف الأبجدية. كل القرى خرجت للحصاد.

★ ★ ★

عندما شاهدت الحلوسية رفيقاتها يتقاطرن إلى الساحة ويدبكن ويرقصن، خرجت من الحسينية، كانت تغلي حماساً، فانتزعت منديل إحدى النسوة، ربطته على خصرها، وراحت تتلوّى كقصبة خيزران، ثم وضعت جرة مملوءة من مياه العين على رأسها، مما زاد من هياج القرى.

البيك وجماعته أصيبوا بالهستيريا، فاستقدموا قوات إضافية، وقطعوا الماء والكهرباء عن البلدة وشددوا الحصار لاعتقال الحلوسية.

لكن الحلوسية ما زالت تغني.

كسروا جرتها فسكرت في الغناء.

أصيبت بكتفها الأيمن فاستمرت بالرقص والدم يسيل من جرحها.

أصابوا المنجيرة وثقبوا جسدها بأربع رصاصات واستمرت بالغناء وآخر كلمة لفظتها: نزيه قبرصلي.

حتى أن أحد فلاحي القرى أخبرنا أنه شاهد نزيه قبرصلي مجتمعاً مع «علي» فعانقه بحرارة وأعطاه رشاشاً حربياً وطار في الفضاء.

★ ★ ★

استمرت الحلوسية تغني وعلي لملم بقايا المنجيرة ثم عزف نشيداً أدى إلى هطول الأمطار. القرى عندما رأت علي يحمل المنجيرة والرشاش بيديه لم تتمالك أعصابها. عمرت الدبكة من جديد حتى وصلت الحلقة إلى نادي الإمام الصادق في صور. القرى أعلنت عصيانها، وقررت:

العشق الحر والحب الحر

قررنا الإستشهاد الحر

قررنا الإستمرار في الرقص والغناء

الحلوسية استمرت بالغناء وعلي ما زال يغني برشاشه

يعزف لحن الأرض

الحلوسية ما زالت تغني

والقرى استمرت بالتقاطر إلى العرس

الحلوسية لم تعد قرية نائية.

الجنوب لم يعد نائياً ـ القرى لم تعد نائية ـ تعلن اليوم أنها الوطن كل الوطن

أما البيك وجماعة الإحتلال فما زالوا محتجزين في إحدى زرائب الحلوسية، بينما أقسم والد علي أن لا يصطاد السمك بالديناميت بعد اليوم.

١١ - ٤ - ١٩٨٤

« عين الحلوة »

عين الحلوة، عين العيون، عين الدم، عين الخيم، عين المنازل المنسوفة، عين المعتقلين. عين الحلوة عروس فلسطينية تسكن فوق تلة من العيون وقد سميت « الحلوة » بسبب حلاوة مياهها، وتعتبر من أكبر العيون في لبنان إذ يشرب من مائها أكثر من مئتي ألف نسمة.

الأطفال في الصيف ينامون في حضنها، يلتحفون بمائها، يتعلمون في مائها، وإذا توفي أحدهم فإن تقاليد العين أن يدفن الميت في الماء أيضاً.

تتميز العين بكرمها الحاتمي، فتوزع المياه يومياً على المدن والقرى المجاورة، ويسكنها رجال مائيون عجز العدو عن اعتقالهم رغم استخدامه أحدث وسائل المطاردة والإرهاب.

★ ★ ★

الصيف الماضي أشعلوا النار « بالعين » وساقوا أبنائها إلى المعتقل، فنام الأطفال في العراء من دون طعام أو مدرسة، ولما حاولت « سهام » ترميم منزلها شنقت فوق قبر زوجها.

أهالي العين ضاقوا ذرعاً بالحصار، فرفعوا عريضة للحاكم

العسكري:

- نريد بناء بيوتنا
- السماح لنا بالعمل
- والتجول خارج العين
- وأن ندفن موتانا
- وعيوننا المعتقلة في أنصار

ونريد ونريد...

لم يوافق الجلاد الصهيوني على مطالب أهالي العين: أنتم غرباء لا يحق لكم العمل أو الزواج أو التجول، أنتم ولدتم بالصدفة وإن بقاءكم أحياء إنما غلطة ارتكبها جنودنا، لذلك نحذركم من رفع العرائض، فامكثوا في «زرائبكم» فلسوف تشكل لجنة ترعى شؤونكم بقيادة الدكتور فاعور الذي سيوزع خيمة لكل عائلة بمناسبة فصل الشتاء.

- ونريد سجلات قيدنا التي سرقها جندكم؟
- لقد أحرقنا سجلاتكم، أنتم منذ ٤ حزيران ٨٢ لا سجلات قيد لكم، لا هوية لكم، لا جنسية، أنتم لستم بشراً، ستصبحون خدماً لزوجاتنا كحل «عادل» لمشكلاتكم النفسية!!؟.

امتنع أهالي العين عن تسلّم الخيم، فجاء جنود العدو واعتقلوا سكان العين جميعاً.

لم يبق في العين أثر للحياة، فنادراً ما ترى حجراً، أو حتى حشرة، صارت العين مركزاً عسكرياً.

* * *

في الخامس عشر من أيار استفاق جنود العدو مذعورين، فالمياه تحاصرهم من كل الجهات، البعض مات «فطساً»، آلياتهم غارت في

الوحول، فشل العدو في إنقاذ الجنود المحاصرين فالعيون انتفضن وزحفن على صفحة الماء، أقمنا المتاريس، أحرقن دواليب الماء، جاك أطلق الرصاص على مظاهرة للعيون فاستشهدت «عين»، وأثناء تشييعها قصفت الطائرات الجنازة وضعوها في جامع البلدة «الصفصاف» فجاؤوا بجرافة وحولوه إلى ركام.

رموها على قارعة الطريق، فسحنتها دبابة الميركافا.

شاهد عيان قال: إن الجثة غارت في الأرض وما هي إلا لحظات حتى انبجست من الأرض آلاف العيون، كنَّ يحملن سيوفاً مائية وحجارة مائية، فدارت معركة ضارية بين العيون والوحش الصهيوني.

* * *

العين استعادت عافيتها، عادت عين الحلوة، الحركة تدب في شوارعها تدريجياً، المدارس فتحت أبوابها، والأطفال عادوا ينامون في حضنها يتعلمون في مائها، وقد ظهر على حيطان العين شعار أحمر يقول: «اقتربت نهايتكم أيها العملاء». وقيل إن «الشعار» يحكي ويمشي ويغني أيضاً.

عين الحلوة عادت توزّع المياه على المدن والقرى المجاورة.

عادت عين العيون، عين القدس، عين اللد، عين البيرة.

عين الحلوة عادت تنجب الليمون الحيفاوي وتعتمر كوفية غيفارا غزة.

عين الحلوة ماسة ترابية، خاتم فلسطيني، «لطشة» تاجر حاول إهداؤه للمستر ريغان إلا أن الخاتم رفض الدخول في إصبع ريغان وهو اليوم يقاوم في عين الحلوة والبص والرشيدية وأم الفحم. عين

الحلوة، عين العيون، عين أنصار، عروس فلسطينية ما زالت تتباهى بسجل قيدها وهي تنضم لعرائس الجنوب، فتتفجَّر عيوناً ومياه وبيوتاً.

١٩٨٤/٤/١٦

« الليطاني »

أسمر كسنبلة القمح، طويل القامة، هادىء كالموت، إذا مرّ من أمام ذبابة يلقي عليها التحية، لا ينام شبعان وجاره جائع، يزور حقول الفلاحين في الصيف، يوزع عليهم الماء، يبل ريقهم، يسقي أشجارهم ونصوبهم وخضارهم، كما يصعد إلى القرى محرّضاً الأرض على الإخضرار، العصافير والشحارير وكل أنواع الطيور « تصيّف » بين ربوعه.

أهالي الضيع والمدن يتعرّون على شواطئه، يلتحفون بعباءته الزرقاء وأكثرية الشباب والصبايا يقضون شهر « العسل » في مراكبه العشبية، بل حدثتني صبية من أرنون أنها اشترطت على حبيبها أن يعقد « هو » قرانها.

الأطباء اعتبروه دواء للعقم والشلل، بل أن عجوزاً اغتسلت بمياهه فعادت صبية شقراء تسابق الرجال على طلب يدها.

عندما تغزو العتمة القرى يشهر سيفه الضوئي ويصرعها، وقد أفادت آخر الأنباء أنه دفن جثة العتمة، وإن كافة « القرى » ارتدت ثياباً ضوئية وصارت تقيم أعراسها تحت الضوء.

كل الناس، كل المخلوقات، يجثون أمام ركبتيه هو صديقهم

ورفيقهم، هو إلههم الكوني، هو الذي يحيي ويميت، لولاه لما فاح أريج زهرة، لما ولدت حبة رمل، لما حبلت إمرأة، هو القابلة، هو الضوء والتاريخ والمستقبل. إذا اختلف اثنان يفصل بينهما، وإذا داهمت الضيعة عاصفة سامة يكون أول المتصدّين لها، لا يحب الفرقة أبداً، عشيقته الوحدة، أسماء أطفاله وحدة، هواياته الوحدة ووحدته الوحدة حتى أنهم سموه إله الوحدة.

* * *

يوم الأحد وكل الآحاد يتفيّأ أهالي الضيع تحت شجراته، يأكلون التبولة، يسبحون، يصطادون السمك، يشلحون أوجاعهم ويحرقونها بحطب يباسه.

الأطفال يلهون بمدنيته، يركبون السيارات الكهربائية، يطيرون بالمراجيح، يركبون الأحصنة، يرشقون العصافير «بالضرب» على صدورهم.

طلاب المدارس يزورونه أيام العطل، يتعرفون على آثاره، ويستأنسون بشروحاته عن الذرات والنيوترونات والوحدة بينهما.

العمال يقضون «تنفيستهم» على ضفتيه، يدخنون سيجارة «الحلة» ويكرعون من مياهه العذبة، الصيادون يلاحقون وزاته وديوك الماء. بائعو البوظة والترمس يتسابقون يوم الأحد «عالبيع». رعاة الغنم يحلبون عنزاتهم على راحة كفتيه.

وفي الليل يجلس مع أطفاله يبكي على فراق الناس ثم يشرع بالغناء، فتجتمع الطيور، تدبك في ساحة داره، كما تقفز بدويات النهر من أسرتهن المائية، يرقصن رقصة الحياة، فيسكر بالغناء حتى مطلع الأحد القادم.

* * *

طوّق العدو كل القرى، عصّب الأطفال والنساء والشباب.

عصّب أشجار اللوز والتين.

عصّب الحجارة.

عصّب الماء.

عصّب ديوك البلدة وصيصان أبو خليل.

عصّب جفت والدي الذي كان يصطاد به الفرّي.

عصّب مناجل الحصاد.

أعلن عصر «العصب».

* * *

يوم الأحد كان مأتماً، لم يزره أحد، فأهالي الضيع معصّبون، «مجلوبون»، «مخربون»، حتى النهار كان معصّباً والليل كان معصّباً.

عشيقته كانت معصّبة.

أيبقى مختبئاً أم يشهر سيفه الضوئي، يقاوم به العدو وعصبته الشنيعة؟ بدأ يفيض ويفيض، وكلما رفرف بجناحيه هاج فيضاناً.

العصب بدأت تنزاح عن عيون القرى والأشجار فقرر العدو تجديد حملته ثانية وثالثة ولكن كلها باءت بالفشل. عندها اتخذ قراراً بسحب مياه النهر، بتعصيب النهر، باقتياده أسيراً، ولكنه استمر بالفيضان.

عندما حشد العدو جيشه الإحتياطي، عصب سلطعوناً وحية مائية، ولكنه استمر بالفيضان ولما سأل قائد جيش العدو عن مغزى اقتحام النهر ومحاولة تعصيبه أجاب بأن «المخابرات» شاهدت الشيخ

راغب حرب والشيخ عباس حرب ومحرم العارفي يصلون في جامع مائي بنوه تحت الماء في أعماق النهر، وأن عمار قوصان وعصام عز الدين ونزيه قبرصلي يستحمون يومياً في مياه النهر ويتسللون عبر النهر والنهر، يفجرون القنابل ويطلقون الرصاص ثم يختفون في المياه.

لهذه الأسباب قررنا سحب مياه النهر - تعصيب النهر - تنشيف النهر.

★ ★ ★

النهر استمر بالفيضان، فهو لم يعد نهراً، لم يعد ينبع من « العليّق » في بعلبك، لم يعد يصب في البحر، أصبح أكبر وأقوى، صار الأرض والوطن وكل الشعب.

١٩٨٤/٤/٢٠

معركة

معركة قرية جنوبية، تقع في قضاء صور، ناسها فلاحون بسيطون بساطة الطفل، مؤمنون « بمعركتهم »، متشبثون بوطنهم إلى درجة الجنون، أم المعارك كانت في العصر الذهبي للناصرية، رائدة القومية العربية. وعندما خرج المارد الفلسطيني من قمقم الأنظمة كانت سبّاقة إلى البذل فقدمت الأساور والروح لهذا الفدائي « الجديد » من أجل تحرير القدس.

اشتهرت بكثرة نواديها، فتلاقت على ملاعبها المرصعة بزؤان القمح، كافة الفرق الرياضية في المنطقة.

في أوائل السبعينيات أقيم في منزل أحد مناضليها احتفال متواضع بذكرى عيد العمال، احتفال لم تكتب عنه الصحف ولا المجلات، ولكن اصطكت منه فرائص الإقطاعيين ومحاسيبه.

معركة قرية جنوبية، تعني « إلتحام جيشين »، فإذا أمسكت بعنق خصمها فإنها لا تتركه إلا صريعاً، فهي على مرّ التاريخ تأبى الضيم وترفض الذل، كان الإقطاعي يصعد إليها إبان الإنتخابات، « الذي ينتخبني، زلمتي، والذي لا ينتخبني مثل جزمتي ».

معركة في مرحلتها « المتوحشة » كان أهلها مقوسي الظهر،

يقضون نهارهم وقوفاً على عتبة « البيك ». ومرة طلبوا منه فتح مدرسة لأطفالهم فأجابهم أنه أرسل إبنه إلى الخارج ليتعلم عنهم!!!

عندما دخل « العرب » إسطبل داوود وجاء شارون إلى البرزة بالإحتلال الإسرائيلي، وقفت معركة وقفة العز على قمة جبل عامل، فأبت أن تصافح جلاد « العصر » وهي الوحيدة التي اعترضت على مفاوضات « كريات شمونة ». وعندما وقّع اتفاق الذل في السابع عشر من أيار مزقت بأقدامها هذا الإتفاق حتى قيل في العالم أن « معركة » هي التي ألغت إتفاق ١٧ أيار.

أم المعارك حرّمت شراء البضائع الإسرائيلية، وعندما خرج أحد مواطنيها على الموقف العام وذاق قطعة حلوى إسرائيلية أصيب بالعقم، بل أن أحدهم شلّت يداه عندما صافح جندياً إسرائيلياً.

* * *

استمرت معركة في رفع صوتها، أبت أن تلفظ كلمة شالوم، بل اتخذت قراراً بأن كل من يحدّق في وجه إسرائيلي فإنما يرتكب إثماً سيعاقب عليه.

اتهمها العدو بعملية الصليب في مارتقلا، وإن أحد مدرسيها هو الذي ألّف شعار العملية « فدائيو الوحدة الوطنية يأمرونكم بالرحيل ». كما اتهمت بعقد اللقاءات السرية مع مشغرة ولالا والقرعون، وأن شهداء المقاومة الوطنية يدفنون في مقبرتها.

* * *

معركة هزت أركان العدو الذي أصيب بالهستيريا، ففيما كان طفل في صور حاملاً بندقية « أم حبة » أردوه قتيلاً. وهناك شاب

أطلقوا عليه الرصاص على طريق معروب فيما كان يسامر محبوبته، فقد اعتبرتها قوات الغزو دورية استطلاع لـ « المخربين ».

وعندما حاول أحد ضباط العدو قطف ليمونة من أحد بساتين الزهراني انفجرت به عبوة ناسفة كانت موقوتة بين أغصان الشجرة.

طفل فرقع علبة « البون جوس » في سوق النبطية أدت إلى إغماء أحد الجنود. آلية إسرائيلية دهست سيارة مرسيدس في حي الصباغ بصيدا، وأخرى إتطمت بعمود كهرباء بعدما لاحظ الجنود جسماً يتحرك على الخط العام.

في الليل تسمع أصوات الجنود يرددون ـ آر.بي.جي ـ عبوة ناسفة، معركة، حلوسية ـ وهم نيام ـ فالعبوات الناسفة تلاحقهم في النوم، على الطريق، أثناء الطعام...

معركة لا تؤمن بمهادنة العدو ولا تسمح له بلحظة تنفس « فالمعركة » أصبحت على مشارف كفرشوبا ودخلت الخيام حيث هجم ثلاثة على مسؤول « الحرس » وأشبعوه ضرباً!!

* * *

حاول العدو تغيير إجراءاته الأمنية فأقام نقاط مراقبة على أسطح البنايات، كثّف الحواجز، ارتدى ضباطه ثياباً مدنية، وزرع المخبرين في كل زاوية، أنشأ الجيش « الشيعي » و« الجنوبي »، أغلق معابر الجنوب، استحدث معتقلات جديدة في مار الياس ـ بعلول ـ النبطية، جويا، الخ..

حاصر القرى، كل القرى..

حاصر الطرقات والأشجار والسيارات.

جاء بسعد ولحد وفهد، أقام مهرجان جزين ومكتب « القدس »

و« ضبيه » و« مؤتمر المغرب »، اغتال الشيخ راغب حرب واقتاد إلى أنصار الشيخين العارفي وعباس، مشّط البساتين، مشّط الأنهار، أغلق المدارس، واعتقل مدرسيها، ختم بالشمع الأحمر مركز الدفاع المدني في صور، أوقف ورش العمال وهدد بحرق الجوامع والحسينيات.

أراجيح الأطفال كسروها، حتى أن سبيلاً للماء يشرب منه المارة حطمه الغزاة.

* * *

رغم جنون العدو قمعاً وإرهاباً فقد استمرت معركة في هتافها « الله أكبر »، « إسرائيل شر مطلق »، « المجد لجبهة المقاومة الوطنية اللبنانية »، حايم قائد المنطقة قرر تأديب معركة فقال لجنوده:

ـ أريد جلدها أن يعلّق على الحيطان، ابقروا بطون الحوامل، إنزعوا آذان الأطفال، و و و ...

خلسة هاجت القوات الغازية معركة، دكوها بالمدفعية، أنزلوا كتيبة مجوقلة في ضواحيها، قذفوا الأهالي بالقنابل السامة، ولكنهم ردوا على أعقابهم وستطاعت النسوة احتجاز عدة جنود. جن حايم وأمر بتدمير معركة ومسحها عن الأرض.

ـ لقد وضعوا جنودنا في مقالي الزيت ورشقونا بحجارة تطلق شهباً، بعض الأهالي كان يصلي والبعض حمل العصي ومناجل الحصاد، حتى أننا أطلقنا النار على ديك كان يصيح، الموت لإسرائيل.

ـ ألم تقتلوا أحداً؟

قتل شخص يدعى « محمود » فخلعت والدته قميصه وصارت ترقص في ساحة البلدة، وتغني، إبنها ذهب إلى الجنة.

وبّخ حايم جنوده وطلب منهم اقتحام معركة مرة ثانية.

القوة المقتحمة قدرت بحوالي ألف جندي.

وقد أخبرنا شاهد عيان بأنه لم تكد تصل القوة إلى مدخل البلدة حتى تبخّرت وامّحى أثرها، وعندما استفسرنا منه قال إنه سيخبرنا سراً، على أن لا نتفوه به أمام أحد.

قال الشاهد: « على مدخل البلدة يرقد جثمان الشهيد الوطني عبد اللطيف سعد وقد دفن في المنزل الذي شيّده منذ عدة سنوات. والشهيد سعد إستاذ ثانوي أحبه أهل البلدة والقرى المجاورة على تواضعه وسعيه اليومي لتنشيط الحياة التربوية في المنطقة، وهو منذ استشهاده ينظّم الفرق والخلايا، كما شيّد ثانوية. ولما اقتربت القوة الإسرائيلية من قبره انفجرت روح الشهيد سعد وقضت عليها ».

* * *

فقد العدو أعصابه، فالمعركة كبرت وانتقلت شرارتها إلى البازورية ومشغرة. وهناك خبر تناقلته الوكالات العالمية مفاده أن دورية من جنود العدو أصيب أفرادها بنوبات قلبية عندما اقتحموا مستشفى دلاعة النسائي بصيدا، فوجدوا أن النساء يلدن قنابل وألغاماً أرضية!!!

١٩٨٤/٥/٢٠

جبل الريحان

جبل من الريح والعواصف العاتية، أغلبية سكانه من الرجال «الرياح».

هو من أكبر جبال العالم، طول سلسلته لم يعرف بعد، صخوره غير قابلة للكسر، ينبت بينها زهر جنوبي، كما يخترق خاصرته نهر مسحور يتغيَّر في كل فصل، تتردّد في وديانه صباحاً ومساء موسيقى، أجمع كافة فناني العالم على اعتبارها فتحاً جديداً في تاريخ الموسيقى، كونها ترقص الأرض وتجعل السماء تنزل من عليائها خاشعة.

الرياح لا تهدأ فيه، الأطفال يولدون في كهوفه رياحاً.

حليبهم رياح،

ثيابهم رياح،

صراخهم رياح،

موتهم رياح،

أنجب طفلة سماها «رياحة»، صبية فاتنة تنظر إلى الصخر فيتفتَّت، تومىء بأصبعها، فتسجد أمام ركبتيها الكواكب والنجوم، عندما تذهب للإستحمام على ضفة النهر تلحقها الأشجار والطيور

والفراشات، بيدها مفتاح الكون وقد قرر والدها أن لا يزوجها إلا لمن يتسلّق قمة الريح.

★ ★ ★

صبحي أحبَّ « رياحة »، علّق صورتها على مدخل البلدة، نزل إلى المدينة « فطرش » الجدران والساحات العامة بإسمها.

كتب قصيدة غزلية ووزعها سراً في الليل، وعندما يذهب إلى الحقل لمساعدة والده يغرس صورتها في التراب.

★ ★ ★

رياحة الصبية الفاتنة، أصبحت الحديث اليومي لكل البشر.

كل الناس تحبها.

كل الشبيبة تتزاحم لرؤية عينيها الحلوتين، حتى أن الرهبان والشيوخ يخلعون « عمائمهم » إحتراماً لطلّتها، رياحة بنت كل الناس، حبيبة الجميع، معشوقة الجميع، طفلة لا تعرف أمها ولا أباها، ولا أحد يستطيع الجهر بأنها طفلته.

هي طفلة الجميع والكل تبناها طفلته.

★ ★ ★

صبحي هجر قريته، ترك المدرسة بحثاً عن رياحة، يا ليته يغفو ولو ثانية على زندها، يا ليته يرشقها بغمزة، بوردة..

★ ★ ★

قوات الإحتلال داهمت منزل صبحي ليلاً واقتادته إلى مقر الحاكم العسكري.

ـ أنت مخرّب تعمل ضد « السلام ».

ـ أنا لا أتعاطى السياسة وأساعد والدي الفلاح في زراعة الحبوب والخضار.

ـ أنت متهم بحب « رياحة ».

ـ كل الناس تحب وأنت ألست تحب؟

ـ إخرس يا مخرّب، « رياحة » مخرّبة وقد وصلتنا معلومات بأنك تجتمع بها سراً في حقل والدك.

ـ « رياحة » بنت ضيعتنا، فتاة جميلة، دخلت إلى المدرسة رغماً عن أهلها، كما أنها أول أنثى قادت سيارة في البلدة، مما دفع البعض إلى تحريض والدها ضدها، لأن سيرتها لا تتلاءم مع تقاليد المجتمع، ومنذ سنوات اختفت ولم نعد نسمع عنها شيئاً.

ـ ولكنك تعرف مكانها.

ـ ليتني أعرف، لكنت فزت بالزواج منها.

ـ أنت مخرّب، كذاب، « رياحة » تدير خلية للمخربين وإذا لم تعترف فسوف تموت.

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

ـ ماذا تقول يا(...)؟

ـ ديننا علمنا « الشهادة » قبل الموت.

ـ أعصبوا عينيه، وضعوه في غرفة « الأكس ».

★ ★ ★

بعد ساعتين من التعذيب سأل المحقق العسكري صبحي ثانية:

ـ أين « رياحة »؟ إذا اعترفت تنقذ نفسك، فأنت شاب كويس، نعطيك ما تريد من النقود، وسيارة وشهر سياحة في أي بلد تختاره.

ـ والله لا أعرف، هي بنت ضيعتنا، وأخبارها مقطوعة منذ سنوات.

ـ ومهدي وحسن؟

ـ من زملائي في المدرسة.

ـ وماذا بعد؟

ـ نحن في صف واحد، ونجلس على مقعد واحد وعند «الحلة» ندرس الرياضيات والعلوم مع بعضنا.

ـ تدرسون الرياضيات أم تخططون لزرع الإرهاب؟ أنت ما زلت تكذب ويبدو أنك عنيد تحب الموت.

★ ★ ★

في اليوم التالي جاء الصليب الأحمر الدولي إلى الضيعة، سلموا جثة صبحي إلى أهله وقالوا لهم إنه توفي بنوبة قلبية، وأثناء الدفن حضرت دورية إسرائيلية فأوقفت مراسم الجنازة لأن «الطبيب» العسكري سيكشف على الجثة.

ـ هذه الجثة يجب أن لا تدفن هنا، إنها ميكروب ينقل العدوى إلى الموتى، ادفنوها بعيداً أو أحرقوها.

لم تكتف دورية العدو بمنع دفن جثة صبحي بل اعتقلوا أباه وأخوته.

ـ نريد ملابسه والكتب التي كان يطالعها، يجب أن لا يبقى أثرٌ منه في البيت، حتى فرشاة أسنانه.

ثم استدعى الضابط مختار البلدة:

ـ كل أصدقاء صبحي نريد لائحة بأسمائهم، حتى الذين صافحهم في حياته.

★ ★ ★

ثم توجهت الدورية نحو المدرسة الرسمية التي تلقى صبحي فيها دروسه.

ـ نريد المقعد الذي كان يجلس عليه.

ونظر إلى المدير متوعداً:

ـ ماذا كانت هواياته؟

ـ الرياضة والرحلات الكشفية.

ـ سجّل أسماء الذين كانوا يذهبون معه في الرحلات.

ـ كل الطلاب يا حضرة الضابط.

ـ إذاً سنحقق مع الجميع.

بعد حوالي الساعتين حزمت المدرسة بأصابع الديناميت وأصبحت ركاماً.

★ ★ ★

استمرت قوات االاحتلال بإجراءاتها الوحشية ضد جبل الريحان، جرفت حقولهم ومنعت الأطفال من الذهاب إلى المدارس، كما حذرت من التجول داخل القرية أو حتى داخل البيت الواحد، وضعوا العسس على المفارق والشبابيك.

بل إن قوات الإحتلال هددت بتدمير الجبل إذا لم يكشف الإهالي عن مخبأ «رياحة».

أما صبحي .فقد تسلّق قمة الريح، حيث اختلى برياحة التي وافقت على الزواج منه، هذا الزواج أرعب قوات الغزو فأمرت بتشديد الحصار على الجبل .وبدأت حملة لتهجير الريح.

ولكن الريح أخذت تشتد وتقوى وأصبح متعذراً على قوات الإحتلال التنقل أو التمركز في أماكن ثابتة.

١٩٨٤/٧/٢٣

طير الذهب

سموها « طير الذهب » لكثرة الذهب والنفائس والعقيق في أرضها، بيوتها مرصعة بالذهب، شجرات التين فيها تثمر « أكوازاً » من الذهب، والصبار كان ذهباً، وإذا تزوج أحد شبابها فمهر العروس كيلو ذهب، ضيعة ذهبية تربض فوق تلة من الذهب، ويوجد فيها نبع ماؤه من ذهب، أسنان أطفالها ذهب، لذلك كان إسمها « طير الذهب ».

* * *

عندما اجتاحت القوى السوداء لبنان في التواريخ القديمة نهبوا ضيعة الذهب، قصوا جوانح الطير، غزوا جسده بنبال حقدهم وحطموا كل النفائس فسرقوا أسنان الأطفال، بعض الرواة يقولون إن الطير قاوم بشراسة وإن بعض « أكواز » الذهب استطاعت الهروب والاختباء بقلعة الشقيف في النبطية.

استشهد الطير بعد مقاومة باسلة حيث عمدت القوى السوداء إلى إحراق حقول الفلاحين وفرض الضريبة عليهم.

لم يكتف المستعمرون بقتل الطير، فغيروا إسم البلدة فأصبحت

« دير الأطباء » يعالجون فيه جنودهم وجرحاهم.

وتمر السنون فيحط في ساحة البلدة طير كبير، يتحلّق حوله الأهالي ينظرون إليه وهو يرمقهم بنظرات الحب والإعجاب، بقي في الساحة أسبوعاً، ثم رفرف بجناحيه وطار في بطن الأرض أو « دب » ومنذ ذلك الحين أصبح إسم البلدة « طير دبا ».

* * *

طير دبا ككل قرى الجنوب، لها مع الإقطاع والمستعمر سيرة وحكاية. عندما كان الإستعمار الفرنسي « منتدباً » أرضنا بحجة تعليمنا القراءة والكتابة، كانت طير دبا طيراً مغرداً في فضاء الثورة والتحرر. فعقد في ساحتها العامة إحدى المؤتمرات الثلاثة لقيادات جبل عامل بقيادة الشيخ حسين مغنية، والشيخ مغنية كان مرجعاً دينياً كبيراً وثائراً ضد الإستعمار الفرنسي، فكان الناس يحجون إليه من كل المناطق لاستشارته، رفض التعاون مع المستعمر رغم إلحاح المندوب الفرنسي عليه أن يكون موظفاً ويتقاضى راتباً مالياً وبسبب الثقة المطلقة التي محضها الأهالي له فقد أخبرني أحد مواطني البلدة أن « الشيخ مغنية عندما كان يذهب إلى عين وادي جيلو كانت السماء تمطر وراءه رغم القحط »!!

عانت البلدة عسفاً وإذلالاً من عملاء المستعمر الفرنسي، لدرجة أن أحد المتسلطين كان يعتدي على النساء، وعندما كان لحام البلدة يذبح بقرة أو غنمة كان محظوراً على أبناء البلدة شراء أوقية لحم قبل أن يأتي المتسلط ويأخذ حصته، وقد استمر هذا الوضع حتى حضر أحد أبناء البلدة من المهجر فاغتاظ من هذا الاستعباد، فذهب ليشتري « لحمة » فقال له اللحام:

ـ حتى يأتي فلان أو أحد أولاده.

فما كان من الآخر إلا أن انتزع اللحمة ومرغها في التراب، فنشبت معركة بالعصي بينه وبين أزلام المستعمر وهو يصيح:

ـ لماذا لا تثوروا يا أهل طير دبا لماذا لم تتحركوا؟

كما يحكى أيضاً أن أحد الإقطاعيين في منطقة صور سأل أحد وكلائه مرة عن سبب عدم نمو نصبات زرعها في البلدة فقال له الوكيل:

ـ يا بيك، نصب ونصب بيصير؟!

* * *

استمر « الطير » في تحليقه عالياً، بقي أميناً لتراثه المجيد، حاملاً راية الشيخ حسين مغنية، مستلهماً أسطورة المقاومة لطير الذهب، ففي عام ١٩٧٥ عندما شهر الفاشيون خناجرهم بوجه الفقراء والمحرومين، كانت طير دبا أول فارس يمتطي صهوة الدفاع عن الوطن والشعب، قاتلت في النبعة وعلى خطوط التماس غير آبهة لشروط الحرب ولقوانينها. وفي الإجتياح الصهيوني عام ٧٨ استمر فارسها يكر ويفر متشبثاً بأهداب « الطير » فارتوت الأرض بدماء الشهيد عبد الغني فقيه، وعندما غزت القوات الإسرائيلية وطننا متحججة هذه المرة « بسلام الجليل » وليس بتعليمنا القراءة كما ادعى الفرنسيون من قبل، اقتاد النازيون الصهاينة حوالي مائة شاب من البلدة إلى معتقل أنصار ومعتقلات الداخل.

* * *

طير دبا لم تحن رأسها، فهي الطريق الى «معركة»، هي عدلون والبازورية وبرج قلاويه، هي حي الست نفيسة في صيدا وحي الرمل في صور، هي «حي» طائر متنقل من بلدة إلى أخرى...

حي عاملي، سكن فيه فترة الشهداء واصف شرارة وعلي أيوب ومعروف علاء الدين ويقال أيضاً أن طربيه العنز كان يرعى غنماته في حقول الحي وإن آثار أقدامه ما زالت باينة على التراب.

طير دبا تقاتل اليوم بنواجذها، برموش عينيها، بحنينها، تقاوم الهوية الإسرائيلية، تستعيد تاريخها، تستحضر أرواح فرسانها، أدهم خنجر وصادق حمزة والشيخ ناصيف.

طيور محلقة في فضاء الكون، وآخر طير حط في ساحتها الشهيد عبد الحسن عز الدين في ٢٢ آب الماضي، الذي اقتحمت قوات الإحتلال منزله أثناء تشييعه ولكنها تقهقرت خائبة عندما انتفضت البلدة. ويحكى أن طير الذهب عاد إلى البلدة مع مجموعة من «الطيور» لمنع دورية العدو من الدخول إلى معركة. وقد أخبرني والد أحد الطيور أن البلدة عاد إسمها طير الذهب وأن أنصار هذا الطير يتكاثرون في القرى وفي المدن.

١٩٨٤/٩/٨

السادس عشر من أيلول

صمم «شامير» على خنق المقاومة الوطنية فأغلق جيشه الطريق الساحلي بعدما ثبت عجز حاجز «الأولي» عن حجز المقاومين وشل مقاومتهم. فالمقاومة الوطنية تخطت حواجزهم وإجراءاتهم وباتت ضرباتها تتخطى الحدود اللبنانية لتطال عمق «اسرائيل».. فهي مقاومة لا تعرف الحدود ولا السدود، مقاومة مجنونة «عفريتة» يخافها شارون، رصاصاتها لا «تخيب»، كما أنها مسحورة أحياناً يكون الكمين ظل شجرة، وأحياناً برتقالة مهترئة وأحياناً طائرة ورقية يتسلى بها أحد الأطفال.

مقاتلوها «قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد» صدق الله العظيم.

مقاتلون أشاوس، حنكتهم التجربة، بعضهم قاتل في الجزائر وبعضهم شارك غيفارا في أول هجوم على ثكنة «المونكادا» وبعضهم كان «فيتكونغاً»، والبعض الآخر ساهم في الإنطلاقة الأولى للثورة الفلسطينية، هم الوريث الشرعي لكل المقاومات الوطنية والشعبية في العالم، منذ سبارتاكوس وحتى اللحظة، لم يتركوا تجربة إلا ومحصوها، إلا أنهم يخوضون تجربتهم الخاصة والتي تعتبر

إغناء للفكر العربي المقاوم ولنظرية المقاومات المسلحة في العالم.

* * *

في نيسان الماضي قرر « شامير » عزل الجنوب، كمّ الأفواه، إحصاء أنفاس الناس وحركاتهم.

- أغلقوا كل البوابات، سدوا كل المعابر واتركوا خرماً صغيراً يمر منه الأهالي على حاجز باتر - جزين.

- فتشوا كل الحقائب صناديق الخضار، دواليب السيارات والشاحنات، إمنعوا دخول الصحف المسيئة للوحدة « الوطنية والسلام »، شوشوا على أجهزة الراديو والتلفزيون، ولا تدعوا أسئلة البكالوريا تصل إلى الطلاب، يجب أن ينسوا وطنهم، أن نعزلهم تماماً، صادروا شاحنات الإسفلت ومادة الفيول والبنزين، فبهكذا نقضي على المقاومة ونعتقلها.

* * *

حاجز جزين - باتر كما الأولي تحول إلى قرية جديدة، ظنوا أنهم بـ« الحاجز » يرهبون البشر ويخصون المقاومة، وإن الناس سترفع « « العشرة ». ولكن حدثت المعجزة، فباتر - جزين مثل « معركة » و« كامد اللوز » وسحمر وبنعفول، حرارة الشمس لا تزيدها إلا شوقاً للوطن.

- « سنعبر تحت الأرض، تحت المياه، هذه الأرض لنا ولن نغادرها ».

- « نحن ننتمي إلى ثورة الحسين ولا يهمنا الإعتقال ولو بقيت شهراً على الحاجز لن أعود إلى بيروت ».

يتعب جنود العدو من التفتيش والتحقيق، والأهالي ينتظرون السماح لهم بالمرور، فهم مثل جبل نيحا، لا يملون الإنتظار، لا يفل من عزيمتهم التعب، أحد سائقي الشاحنات كان يتقدم بشاحنته ثلاثة أمتار يومياً ومع ذلك كان مسروراً، أحد المواطنين توفي، وهناك سيدة أنجبت مولوداً، والبعض أصابه المرض، ومع ذلك استمروا على الحاجز، منتظرين دورهم، حتى أن مراسلاً أجنبياً كتب تحقيقاً صحافياً اعتبر فيه « أن مئات من المواطنين اللبنانين يقيمون حاجزاً على معبر « باتر - جزين » يسدون الطريق بأجسادهم وسياراتهم لمنع قوة إسرائيلية مؤللة من العبور ».

* * *

القيادة الإسرائيلية أصيبت بالهستيريا، فالمقاومة الوطنية أحدثت هزة سياسية داخل الكيان الصهيوني وبيريز وعد ناخبيه بالإنسحاب من الجنوب خلال شهرين إذا فاز بالإنتخابات.

المقاومة طورت عملياتها العسكرية مما دفع حكومة العدو إلى تصعيد إجراءاتها القمعية والتنكيل بأبناء المناطق المحتلة بشكل وحشي لم يمارسه احتلال أجنبي لبلد في التاريخ.

- إغلاق مرفأي صيدا وصور ومنع صيادي الأسماك من الصيد وتسييج المياه و« تسليكها ».

- منع دخول القمح وتصدير الحمضيات، وجرف البساتين، وإتلاف محاصيل الفلاحين.

- تفريغ الجنوب من قياداته الوطنية ونفي السيد محمد حسن الأمين، وتوجيه الإنذارات لبعض الأطباء وأساتذة الجامعة اللبنانية.

- المداهمات اليومية للقرى وإرهاب السكان، بخلع البيوت

وترويع الأطفال والنساء وإفلات الكلاب البوليسية عليهم كما حدث في بلدة كفرملكي، كما أقفلت قوات الإحتلال بالإسمنت المسلح الأبواب والشبابيك على ثلاثة مواطنين في كفرشوبا.

ـ زيادة عدد المعتقلين في أنصار واستحداث معتقلات جديدة في بعلول ومار الياس وصور والنبطية وعدم السماح للصليب الأحمر بتقديم الإحتياجات الضرورية لهم.

ـ إقتطاع آلاف الدونمات وسحب مياه الوزاني والحاصباني ونهب آثار صور وتدميرها.

* * *

كل هذه الإجراءات الإرهابية والتجويعية لم تجد نفعاً، فقد ظن قادة العدو أنهم بتشديد الحصار على الجنوب يلقون القبض على المقاومة، ولكن المقاومة إشرأبت بعنقها واقتحمت «السماء»، وقرية أم الفحم أعلنت العصيان وطردت العنصري كاهانا، بل أكثر من ذلك فإن المقاومة بدأت تستعد للإحتفال بعيد ميلادها الثاني، وكلما اقترب الموعد كلما أحس جنود العدو بقرب «أجلهم». وتفيد المعلومات من الجنوب أن الضباط والجنود الصهاينة رفعوا عريضة يطالبون فيها بإجازة أسبوع تبدأ في ١٦ أيلول لأنهم يعتبرون هذا اليوم يوماً خطيراً، فقد تثور الطبيعة وتفيض الأنهار، قد تنشقّ الجبال «وتزلزل الأرض زلزالها». أحد الجنود قال لزميله: «يجب أن نذهب لبيوتنا، شاهدت بالأمس حلماً مرعباً. طيور في السماء تضع في عنقها شارات ١٦ أيلول، الطريق الساحلي ومداخل القرى مزروعة بشجرات بيضاء تطلق قنابل مضيئة. وفي الساحات العامة والملاعب، فرق رياضية كشفية، كما شاهدت الكولونيل «موسى»

يدخل إلى معتقل أنصار معصوب العينين».

ـ ولماذا يفعلون ذلك؟

ـ سمعت أحد الفلاحين يقول إنه في هذا اليوم ولد «رسولهم» وإن «الآية» الأولى نزلت في «الصنايع» والثانية في «محطة أيوب» والثالثة في «الويمبي».

ـ وماذا تقول الآية الأولى، الآية الأولى مثل الثانية والثالثة، فهم لا يؤمنون إلا بآية واحدة، حياتهم آية واحدة، وقد اكتسحت هذه الآية كل القرى والمدن، فصاروا يرددونها في المدارس والحسينيات وعلى مفارق الطرق، وادي الزينة ـ العاقبية ـ مفرق الزرارية ـ البص ـ مقر الحاكم العسكري في صور وغيرها فآيتهم واحدة يا زميلي و١٦ أيلول يعتبرونه عيداً وطنياً لأنه مولد رسولهم وبداية تكوّن وطن يحلمون به».

* * *

القائد العسكري الإسرائيلي «أوري» جن جنونه وأعلن إغلاق معبر «باتر ـ جزين» كلياً بحجة منع «السيارات المفخخة».

أعلن منع دخول السيارات، الدراجات، الحشرات.

أعلن منع دخول الشمس إلى الجنوب، أغلقوا كل المعابر، كل الشبابيك، حتى أن إمرأة حاملاً هددوها بالشنق إن علا صراخ طفلها أثناء الولادة. لم يسمحوا لغصن شجرة بالتمايل، لقرقعة نارجيلة، لعروس ترتدي بذلة الزفاف، لمحرك سيارة أن يهدر، لجرس كنيسة أو مدرسة يرن.

لم يسمحوا لطابة بالتدحرج على طريق، لكهل يفتل شاربيه، أن يلقي التحية على جاره أو قريبه (شاهدت بأم عيني جندياً إسرائيلياً

يشد كهلاً بشاربيه ويهدده بحلقها).

باتوا مرعوبين، مهووسين، فرقة عين تقلقهم، لذلك أعلنوا موت الجنوب وقد صدرت صحفهم الأحد ٢ أيلول بإعلان عزل الجنوب، بخنقه، بسحب مياهه، بحرق أشجاره وسبي شعبه وو...

★ ★ ★

لكن الجنوب لا يموت.

فلم تمض ساعات حتى اشتعل الجنوب وهاجت القرى، فكانت عملية أبو الأسود والزهراني وصور، والنبطية والخيام، وأعلن ناطق باسم جبهة المقاومة الوطنية أن المقاومة سترد على إجراءات العدو بتطوير عملياتها كماً ونوعاً والبدء بتحويل المقاومة من مقاومة إعتراضية للإحتلال إلى مقاومة للتحرير.

وكلما اقترب موعد السادس عشر من أيلول، كلما ارتبك جنود الإحتلال، بعضهم فرّ من الخدمة، وبعضهم عاد إلى موطنه الأصلي تاركاً «فردوس» الجنوب لشامير وشارون.

إن السادس عشر من أيلول يقترب والرياح الجنوبية والبقاعية يتعالى صفيرها ووعيدها. فالسادس عشر «ذكرى ميلاد رسولهم...» وقد تحدث في هذا اليوم زلازل وبراكين. قد تظهر «جولة» على شاطىء صور وقد تزور معركة وتصلي على قبر الشيخ راغب حرب.

السادس عشر من أيلول ذكرى هزيمتهم وفرارهم، ولولا هذا «السادس عشر» لجثم ١٧ أيار على صدور اللبنانيين، السادس عشر من أيلول قالوا عنه «فأر لا يستطيع الإنتصار على فيل ضخم»، وقالوا: «العين لا تقاوم المخرز» وإن «العين لا ترتفع فوق

الحاجب» وإن «الحجر لا يقاوم الدبابة»، وقالوا وقالوا... ولكنهم نسوا ماذا قال هوشي منه عندما سألوه في بداية انطلاقة الثورة الفيتنامية: «هل يستطيع فأراً أن يواجه الفيل؟»، قال: «بعد عدة سنوات ستجدون أمعاء هذا الفيل على الأرض».

وهكذا كان في فيتنام وكوبا والصين وكمبوديا وأنغولا واليمن.

وهذا ما سيفعله اليوم «السادس عشر من أيلول» بالفيل الاسرائيلي في لبنان.

مع اقترابه يتصاعد نواح جنود العدو، يخيم شبح الموت على وجوههم، فالسادس عشر يتربص لهم، يتحدى عزلهم، يطاردهم، وآخر الأخبار تقول إن ضريراً قضى ثلاثة أيام على حاجز «باتر - جزين»، ولما لم يسمحوا له بالمرور، خلع نظارتيه ورماها على الجندي الإسرائيلي، فاستعاد بصره فوراً، وهناك جندي إسرائيلي سقط عن برج المراقبة عندما سمع طفلاً يغني للسادس عشر من أيلول وهو يرى النور.

١٩٨٤/٩/١٦

بدياس

ضيعة بلا بيوت، كان محرَّماً عليها بناء بيوت حجرية فالأرض نزلت له « بكمبيالة » من السماء.

لم يكن مسموحاً بناء مدرسة أو شق طـريـق، وعنـدمـا اشترى أحدهم سيارة ضربه البيك.

يجب أن تركبوا الحمير والبغال. كان غير مسموح أن يزرعوا زريعة نعنع أو مردكوش، وإذا مشى شاب على « الطريق » رافعاً رأسه فالويل له، يجب أن يزحف على الأرض وينتقل خلسة.

بدياس ضيعة بلا بيوت، إنها ضيعة البيك، استولى عليها عندما أهدى معطفاً ممزقاً إلى أحد فلاحي البلدة، ومنذ ذلك « المعطف » أو كما يقول الأهالي: « الكبوت » صارت البلدة ملكاً له، هو خالقها وهو يحيي أهلها وهو يميتهم!!

★ ★ ★

حوَّل الأهالي الأرض إلى بساتين غنَّـاء، جعلـوا مـن الصخـرة ليمونة هم ولدوا من أجل البيك الذي صار له أجنحة من نقود، ومع ذلك لا يسمح لهم بمغادرة جحورهم إلا وقت العمل، وعندما

حاول أحدهم مص ليمونة وهو يعمل في بستان(...) جن جنونه، وأمر وكيله ـ كل من يمص ليمونة قص رأسه وادمله في الثلم.

ـ ولو كان الذي يشتغل بالسم يلحس منه، فنحن نتذوق ما أنتجناه.

ـ هكذا أمر البيك.

هذه هي مزرعة بدياس يخافون من دقات قلوبهم، وإذا دعتهم القرى المجاورة لرفع النير عن أكتافهم كانوا يترددون.

ـ اللحم هللي عاكتافنا من(...)

* * *

بدياس ضيعة بلا بيوت، بلا بشر، وعندما طوقت قوات الغزو القرى لم تدخل بدياس، فالضابط الإسرائيلي اعتبر أن بدياس لا وجود لها على الخارطة ـ ضيعة لا تقوى على التنفس أو الحركة..

* * *

«اللمعة الدمشقية» أضاءت سماء الجنوب وبدأت القرى تتقاطر إلى أعراس المقاومة والإستشهاد فاستيقظت بدياس من نومها، قررت أن ترشق العدو بحجر وتضع خاتم الخطوبة في يمينها.

قررت أن تزرع النعنع والمردكوش، أطفالها صاروا يذهبون إلى المدرسة، سنابل القمح صارت تسمَّر، وأبو خليل تراه يومياً تحت فيء الخروبة يغني الميجانا والعتابا. بدياس مزقت أقمطة سجنها، كبرت بسرعة ـ صارت تحبو وتركض وتطير.

قررت أن تغرس إسمها في الأرض، أن تشم رائحة الأرض، أن تدفن موتاها في الأرض.

بدياس كبرت، لم تعد طفلة رضيعة. صارت تضحك، تلعب، لم تعد أسنانها، أسنان الحليب. لها أسنان حديدية. بدياس لم تعد عدة بيوت أو ضيعة من «الصيصان»، ولا حتى مخفراً لـ« ...» لم تعد قبقاباً للبيك.

بدياس اكتست بالريش.

صارت مدينة

صارت جميلة

صارت حقيقة

بدياس كبرت، صارت تحبو وتركض وتطير.

* * *

قرر العدو الإنتقام من بدياس ـ قرية صعلوكة.. لكن بدياس قاومت ببسالة، استلت سيفها الترابي وانفجر حقدها الدفين على البيك.

حقدها الطبقي على الإقطاع،

كل شيء فيها قاوم وانتفض.

الحجارة قاتلت، الخروبة قاتلت، أرغفة المرقوق صارت تقفز عن صاج أم حسين وتقاتل.

غنمات ياسر قاتلن.

دخان المواقد، شجرات الصبار، حكايا العجائز، شوارب «أبو موسى».. حتى عرانيس الحقل خرجت بسرعة وقاتلت العدو الذي تقهقر عن روابي البلدة.

وعندما جدَّد حملته مرة ثانية وثالثة أصيب بالخيبة.

فبدياس لم تعد مزرعة للبيك، لم تعد تؤمن بالسحر ولا

بالشعوذة، بدياس صارت ضيعة مقاومة، تعرف جيداً جمع الأرقام، وتجيد فن الرقص بأعجوبة.

بدياس صار لها لسان وعينان.

بدياس تحمل بندقية

صارت جميلة

صارت حقيقة.

بدياس قرية عربية، ضيعة يسكنها الفقر ولذلك يعجز العدو عن اقتحامها.

١٩٨٤/٩/١٨

طلوع الفجر

قادماً من أرض اللهب، رائحة التبغ تفوح من عينيه، ثيابه مرقَّطة بلون جبشيت ومعركة وجباع، حاولت أن أصافحه فرفض لأن في يديه كمشة من هواء الجنوب يخاف عليها أن تطير.

سألته ما إسمك؟

ـ علي.

ـ وماذا تعمل في الجنوب؟

ـ نحن رجال نعمل في «العمليات».

ـ وآخر عملية نفذتها؟

ـ عملية العزية.

ـ كيف؟

ـ خرجنا باكراً إلى الجبل لجمع الحطب، ونراقب حركة العدو وتنقلاته. وعندما رفرف الليل بجناحيه تقدمنا نحو العزية لزرع لغم أرضي، وجدنا كومة ريش، فطمرنا «اللغم» تحتها وراقبنا عن بعد خمسين متراً، وما أن اقتربت آلية العدو حتى نهشتها ألسنة النار وصار الجنود يصرخون كالكلاب المذعورة.

ـ وماذا فعلتم عندها؟

كنا في قمة السعادة، فليس أروع من أن تضغط على صاعق لتفجّر دبابة للعدو، ثم غصناً في أعماق الجبل الذي ابتلعنا بسرعة حتى صرنا جزءاً منه، فخلعنا ملابس «العملية». وعندما عدنا إلى البلدة كان الأهالي يتحدثون «أن رجال المقاومة الوطنية نفذوا عملية عند طلوع الفجر ولم تستطع القوات الإسرائيلية إلقاء القبض عليهم».

وفي اليوم التالي ذهبنا مع بعض شباب البلدة للتفرج على مكان العملية.

ـ سلمت أيديكم أيها الأبطال.

صار الدم يرقص في عروقنا.

باختصار إن أمكنة العمليات تتحول إلى مزارات في الجنوب. وصار الناس يتوقعون مع طلوع الفجر عملية للمقاومة الوطنية، ومرة نهض بعض جنود العدو من أسرتهم وأطلقوا النار على خيوط الفجر المتسللة إلى خيمهم، إنهم يخافون طلوع الفجر، «فالفجر» هو حفار قبورهم.

* * *

ـ كل بيت عبوة ناسفة، والناس عندنا لا تدير مفتاح الراديو إلا لسماع عمليات المقاومة الوطنية، وما تقومون به إعلامياً في بيروت بمثابة رسالة من إبن مسافر إلى والديه.

ـ والعملاء؟

ـ مرة جاءني أحد العملاء وصار يبكي عندما وجد بياناً ـ إنذاراً ـ تحت بابه، فقلت له إن المقاومة الوطنية لا أب لها ولا أم، وإذا غيّرت ممارستك فهم يغفرون لك.

* * *

الله أكبر ولكن

استدعى الحاكم العسكري لمنطقة صور مختار (برج رحال).

ـ أريد أن أسألك يا مختار.

ـ أنتم تهتفون في الحسينية: «الله أكبر الموت لإسرائيل»، فهل هذا موجود في صلاتكم وقرآنكم؟ فقولوا «الله أكبر» ما تشاؤون ولكن لماذا الموت... فأجابه المختار:

ـ إنها موجودة في صلاتنا ولذلك يرددها الشباب.

* * *

لقد سبقك بلال..

عريس الجنوب بلال فحص كان له صديق يدعى بلال، كانا لا يفارقان بعضهما البعض في النوم والأكل واللعب منذ صغرهما.

عندما استشهد «بلال» نظر والد «بلال» إلى إبنه:

ـ لقد سبقك بلال يا ولدي.

* * *

مبروك يا ولدي

جاء أبو أحمد بالعبوة الناسفة جهزها جيداً ووضعها في مكان آمن

في سيارته. أما أحمد فقد ارتدى بذلة جديدة استعداداً للإنطلاق نحو العرس إلى الهدف المحدد.

ـ مع السلامة يا ولدي.

وعندما عاد أحمد من مهمته عانقه والده وقال له.. مبروك يا ولدي.

★ ★ ★

كلمة السر

عندما حاولت قوة من المخابرات الإسرائيلية إقتحام بلدة برج رحال ليلاً قام أحد الشباب ونادى عبر الميكرو: «عاالأجر يا عباد الله». جند العدو لم يفهموا، فاستمروا مختبئين إستعدادا للإقتحام. في هذه الفترة استيقظ أهالي البلدة، حملوا المناجل والعصي والحجارة. أحسّ الجنود بأعمدة اللهب، ففروا كالفئران.

وفي الإقتحام الثاني وصل الجنود إلى النادي الحسيني ـ كانت «مريم» تحث الأهالي على مقاومة العدو، فأطلق أحد الجنود النار على المذياع فأسكته.

في البلدة جامع آخر، ذهب الشباب وبدأوا يهتفون بالميكرو الأناشيد والخطابات الحماسية.

جن الضابط المسؤول.

ـ لقد عاد حياً، أطلقوا النار عليه ثانية.

استمر الإقتحام الثاني والثالث وربما الإقتحام العشرون، ولكن صوت مريم ما زال يجلجل، إرحلوا من أرضنا أيها الطغاة.

★ ★ ★

دخلت قوة من الجيش الإسرائيلي بلدة السكسكية ـ استدعوا مختار البلدة.

ـ نريد خمسة عشر شاباً للإنخراط في الجيش الجنوبي.

ـ ولماذا ؟

ـ لحفظ الأمن في البلدة.

ـ نحن في الجيش الشرعي لا ننخرط فكيف...

١٩٨٤/٩/٢٦

« سحمر »

حنَّت يديها وشعرها، حنَّت عينيها، حنَّت إبريق الماء، ثقبت أذنيها بحلق من الحنة، حنَّت شجرة الغاردينيا، اغتسلت بماء الحنة، ورفضت أن يصلي على جثمانها إلا الشيخ راغب حرب.

تحت المقصلة كانت تضحك، تغني مع مارسيل.

« منتصب القامة أمشي

مرفوع القامة أمشي

في كفي قصفة زيتون

وعلى كتفي نعشي »

لم تأبه لسياط الجلادين، لرصاصهم، لبلطاتهم، فاستمرت في الغناء، بل أثناء التشييع أدت رقصة « الخناجر والسيوف ».

ـ من كان معك البارحة؟

ـ كان معي محمد يونس ومحفوظ ولالا ولبايا والقرعون وو ..

هجم الجلاد وغرز ساطوره في جسدها فأجهضت لكنها استمرت بالغناء، مواطن من سحمر قال إن صوتها صار أكثر حنةً وأكثر ثورة ووو.

سكرت بالغناء وأناشيد الدم ثم صرخت:

ـ إنني عطشانة.

فقد الجلاد صوابه ونظر إلى زميله:

ـ أنظر الملعونة ما زالت تتكلم، هيا أشعل النار فيها، قطّعها إرباً إرباً وارمِ جسدها للغربان.

«وكم كان المشهد مهيباً، ما أن لمستها النار حتى انتفضت من جديد، مزقت وثاقها، وصهلت صهيلاً انخلعت منه قلوب الجنود، التقطت جنينها عن الأرض، فأرضعته بسرعة وصار يبكي أمام الحاضرين.

ـ ماما ـ ماما.

أصيب الجميع بالذهول، لقد جاء أهل ضيعتها لاستلام جثتها.

ـ يجرؤون على دفن موتاهم.

لم تنم سحمر في النعش، أو ترتدي الكفن الأبيض لبست فستان العرس وامتطت فرساً من السنابل وجلس وراءها خطيبها الذي أحبته منذ أن كان على مقاعد الدراسة، لكن الدهشة التي صعقت الجلاد أن الطفل الذي أرضعته منذ لحظة، كبر بسرعة وأصبح مارداً من تراب.

لم ترد سحمر إبقاءهم فريسة الذهول، طلبت منهم إكمال مراسيم العرس، نزلت عن فرسها السنبلية تهتف وتغني:

غداً عيد انطلاقتي
عيد الرصاصة الأولى
أنا السنبلة وكوز التين
أنا زورق الصياد، منجيرة الراعي، زوادة الفلاح
حليب الشمس والسماء
أنا سمكة أعيش في التراب

في الجمر، في العشب، في الجبال
أنا طائرة ورقية في السماء
«بون جوسة» في النبطية
عاشوراء
أنا الزيت المغلي، الزمن المغلي، الكون المغلي
أنا «الله أكبر»
أنا معركة وجبشيت وكامد اللوز
أنا يسار وبلال ونزيه ومعتقل أنصار
أنا الضاحية
أنا ١٦ أيلول وبيروت ٦ شباط
أنا الصنايع والويمبي ومحطة أيوب
أنا صبرا وشاتيلا وكومونة باريس
أنا وادي الزينة
ومفرق الزرارية وجباع وعنقون
أنا سحمر، سحمر، سحمر
أنا جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية.

١٩٨٤/٩/٢٥

أجمل الإحتفالات

في « أنصار »

من قال إن احتفالات الحزب الشيوعي اللبناني بعيده الستين أقيمت فقط في ملعب « المزرعة » و« البيكاديللي » و« المركز الثقافي السوفياتي » و« حلبا » وغيرها من المناطق والمدن والأحياء اللبنانية في العاصمة والجبل والشمال والعالم أيضاً، من قال هذا القول فهو مخطىء.

احتفالات الفرح، احتفالات الثورة، احتفالات الغضب، احتفالات المقاومة الوطنية رفضت أن تحبس في « سجن » بيروت أو قاعة البيكاديللي، تمرَّدت على حزبها وأبت إلا أن تحييه مع أطفال العيد وأبناء العيد، مع أبطال العيد، طارت في فضاء العيد، اخترقت كل الحواجز وكان معها مارسيل والشيخ إمام وخاليكس و« روستافي » و« أمية » وفرقة الأرض والهبر واتحاد الشباب وكل المحتفلين والمشاركين بالعيد.

تمردت على حزبها، حرَّضت الجميع ـ أطفالاً وصبايا وضيوفاً ـ حتى زينة العيد واليافطات والأعلام ومعرض الكتب والصور وقوالب

الحلوى وألعاب الأطفال، كلهم انتفضوا وزحفوا نحو معتقل «أنصار»، هناك كان العيد، عود مارسيل كان يتنقل من معسكر إلى آخر.

صوت الشيخ إمام كان بركاناً يعتمل في أعماق الأرض ووو هناك كان المهرجان «التاريخي»، مهرجان الإنتفاضة التشرينية حيث دوى صوت الشيخ يوسف مسلماني: «يا معتقلي أنصار اتحدوا».،

- أحد المفرج عنهم نقل رسالة شفهية من المعتقل يقول فيها:
- تحية للحزب الشيوعي اللبناني من كافة الرفاق المعتقلين وكل المعتقلين في عيده الستين. لقد خاف العدو من رؤية المناجل والمطارق، وقد طلبوا مني أن أخبركم أنهم سيستمرون بالإحتفالات حتى الإفراج عنهم وتحرير الجنوب من الغاصب الصهيوني ولهم طلب بسيط أن تتكثف عمليات المقاومة الوطنية وتتصاعد.



«التفاحة»

جاءت لحضور العيد، لتفرح وترقص، لتغني.

إنها تفاحة جنوبية.

موردة الخدين، شفتاها توتيتان، شعرها بني بالإحمرار.

- ماذا تفعلين هنا؟
- جئت لحضور «نزهة ريفية».

- معك بطاقة؟
- الآن وصلت.
- كيف معنويات الشباب؟
- في أحسن حال، إنهم يحلمون بصعود جندي إسرائيلي إلى البلدة.

استأذنت منها، الأصح إني خجلت من التحديق في عينيها اللامعتين، البارقتين وكأنها عبوة ناسفة ستنفجر بعد لحظات.



«القبضة الكرتونية»

آخر المعلومات من الجنوب والبقاع الغربي المحتلين تفيد أن إسرائيل أعلنت «القبضة الحديدية» وأن مصير القرى التي ينطلق منها المقاومون الوطنيون لن يكون أحسن حالاً من سحمر ولبايا وبنعفول.. إلخ. بل إن إسرائيل تنوي «الهروب جزئياً» من بعض المناطق وإن جيش «لحد» أثبت عجزه بعدما طاردت فلوله جبهة المقاومة.

ورغم «القبضة» التي أعلنت عنها إسرائيل فقد ذهب بيريز إلى واشنطن مستغيثاً بوالده ريغان من أجل إنقاذه من التورط في المستنقع اللبناني، ويقال إن ريغان وبَّخ بيريز بسبب عجز الجيش الإسرائيلي عن إركاع الجنوبيين وهو الجيش المجهز بأحدث الأسلحة. وعندما سأله ريغان عن أساليب المقاومة الوطنية، قال بيريز:

ـ تصوَّر لم يكتفوا بالعبوات والألغام والقنابل والآر. بي. جي والحجارة، صاروا يواجهون قواتنا. وجهاً لـوجـه وعنـدمـا أعلنّـا « القبضة الحديدية » هزئوا بإجراءاتنا واعتبروها « كرتونية ».

ـ قل لي بغض هذه الأساليب، لعلنا نساعدكم.

ـ إنهم يستعملون ضد قواتنـا « الأنتريـك الكهـربـائـي » الذي « يفونسون » به العصافير والدواري في فصل الشتاء داخل البيوت المهجورة وعلى أغصان الأشجار وهناك الأفخاخ المزروعة بالأرض، فيطمرونها بقليل من التراب الناعم ويضعون « دودة » في العقب عندما يأتي العصفور ليأكلها يقع في الفخ.

ـ يعني أصبحتم مثل العصافير في الجنوب.

ـ وقد اكتشفنا أسلوباً آخر يطلقون عليه: دفانة الحجل.

ـ كيف؟

ـ يحفرون جورة في الأرض وتوضع لوحتان يفصلها « رسور » وتطمر بالتراب، وبمجرد أن تحط الحجلة عليها تسقط في الجورة، بالإضافة إلى دبق العسل الذي « يُصلى » على أغصان التين وقد وصلت بهم الوقاحة إلى اختراع المتفجرات المحلية بعدمـا أغلقنـا المعـابـر والممرات وهناك الـ ...

١٩٨٤/١٠/٢٥

« بالدم بالروح نفديك يا جنوب »

« مؤسسة جبل عامل »

دعا الحاكم العسكري الإسرائيلي لمدينة صور حاييم أركان القيادة العسكرية لقوات الغزو في لبنان إلى حفلة تناول كأس سلام الجليل في مكتبه بمقر الحاكمية.

ـ بعد أيام ستأتي وفود سياحية لتزور آثار صور وأرنون وسوف يتفرجون على بطولات جيش الدفاع في صيدا وعين الحلوة وبرج الشمالي، ولسوف نأخذهم « ليضحكوا » على المخربين في أنصار ووووو..

الجنرال ألبرت يقف متباهياً:

ـ هذا الغليون حفرته من رأس أحد « المخربين » كما أهديت زوجتي خاتماً نزعته من يد إمرأة ميتة في صيدا.

ـ برافو ـ قالها الكولونيل لألبرت وأكمل حديثه:

ـ البعض اتصل بي من أجل الاستحمام على شاطىء صور وإنهم يريدون أكل السمك في خيزران والصرفند.

ـ حضرة الكولونيل والدي مشتاق لصيد « الفر » في حقول الفلاحين في بدياس والقاسمية وعدلون وبرج رحال و و.

ـ سلام الجليل سيحقق لكم كل شيء ، هذه الأرض ستصبح لكم ، ولسوف نحولها إلى منطقة سياحية ونقيم فوقها فنادق وملاهي ، وقد نتخذ قراراً بإقامة المستوطنات في حاريص وأرزون والدوير ففي الجنوب مناطق حلوة وخصوصاً في فصل الصيف .

ـ وماذا يحقق لنا سلام الجليل أيضاً :

سلام الجليل كان حلماً عند أجدادنا منذ هرتزل وبن غوريون والجنوب صك من عند الله لدولتنا ، حتى أن موسى شاريت رئيس وزراء دولتنا السابق عام ١٩٥٤ أشار في مذكراته إلى ضرورة تحقيق هذا الحلم من أجل استمرار دولتنا ، فسلام الجليل أفق لا يحدّ وقد يتغلغل هذا « السلام » إلى سوريا والعراق ولسوف يصل إلى إفريقيا ، باختصار سلام الجليل هو أن نصبح الأمبراطورية العظمى في هذا العالم ، وأن ندمّر الحضارة العربية والإسلامية ، نريد العالم كله أن يصبح « يهودي » .

ـ وماذا بعد ؟

عملية الجليل ستنعش إقتصادنا ، فبعد فترة سنستثمر مياه الليطاني ونجر قسماً منها إلى الحولة وطبريا ، وأنتم تعرفون مشكلة المياه لإسرائيل ، فنحن بحاجة ماسة لمياه الليطاني والحاصباني ، وفي المستقبل سنحاول الإستفادة من نهري دجلة والفرات و و .. فعندنا آلاف الدونمات بحاجة للري ، كما أن إقتصادنا الصناعي سيكتسح الصناعة اللبنانية ونغرق السوق اللبنانية بكل إنتاجنا القومي من « قشة » الكبريت وحتى ... فالزيتون ، والبطيخ والموز ، و و .. يتدفق كالمطر إلى الجنوب ، يجب سحق المزارعين اللبنانيين ، وأنا قد أعطيت تعليماتي بتدمير محطات المياه وشبكات الكهرباء في الجنوب كي تبور

الأراضي وتيبس ، وهذا ما سيدفع الفلاحين للهجرة ويسهل سيطرتنا على الأرض وشرائها منهم .

فبعد عملية الجليل أستطيع التأكيد بأن جندياً من قواتنا لن يجرح أو يموت بعد اليوم ، فاحلموا بسلام الجليل الخطوة الأولى كانت في مصر ، والثانية في لبنان ، وغداً ستحلمون بخطوات أخرى حتى يعم « سلام الجليل » العالم العربي كله .

ـ يعني بالتدريج .

ـ لبنان هو مفتاح المنطقة بالتأكيد !!

ـ وهل تعتقد أننا لن نواجه عراقيل ، فقد يثور الشعب إذا سحبنا مياه الليطاني وبارت مواسمهم ..

ـ لا لا لا ، أهالي الجنوب ، رحبوا بنا ، وصديقنا الكبير « حداد » له عشرات المكاتب في الزرارية وعدلون وأنصار وهناك أصدقاء يتوافدون علينا وهم كانوا سابقاً خاضعين بالقوة « للإرهابيين » لقد أعطيناهم الحرية وخلصناهم من « التجاوزات » وأعتقد أنهم لن ينكروا الجميل ولا تنسى أن فتاة في شرقي بيروت وضعت قرنفلة في فوهة رشاش أحد جنودنا .

ـ وهل تدوم هذه الحالة ؟

ـ لماذا لا تستمر ، بالأمس دعيت إلى مأدبة غداء في صيدا وقبلها في القليلة ، بل أن جنودنا يتجولون في أسواق صيدا وصور يقبضون ويشترون الحلوى ويتجولون بدون أسلحة ، وكأنهم في تل أبيب بدون مضايقة ، بل يتسابق المواطنون لإلقاء التحيات وأخذ الصور التذكارية معهم ، وهناك فتاة تقدمت من أحد جنودنا ليتزوجها !!!

وفي بداية الإجتياح ألم تروا الرايات البيض فوق سطوح المنازل!!!

والآن تعالوا نشرب كأس الجليل، كأس بيغن وشارون.

ولم يكد الكوب يلامس شفتيه الغليظتين حتى رن جرس التلفون:

- سيارة مدنية تجتاز حاجزاً لنا شمال مرفأ صور ويلقي أحد ركابها قنبلة على الحاجز يؤدي انفجارها إلى جرح ثلاثة جنود، كما أطلق مسلحون النار على سيارة عسكرية إسرائيلية في بلدة حبوش، وفي نفس اليوم تعرضت «وحدة مساعدة المدنيين» في مدرسة الإصلاح الرسمية في صيدا لنيران أسلحة رشاشة.

طار الكوب من يديه وصرخ:

- كيف جاؤوا، كيف؟ أريدكم أن تذهبوا حالاً وتتخذوا الإجراءات المناسبة.

- وماذا سنفعل يا حضرة الكولونيل؟

- إمنعوا التجول، مشّطوا البساتين، اعتقلوا أهالي القرى المجاورة، وحققوا مع كل شخص ماذا كان يعمل لحظة إطلاق الرصاص.

* * *

وبينما حاييم جالس لوحده وأمامه كومة من أعقاب السجائر المحروقة، رن جرس التلفون ثانية:

- هاجمت مجموعة من «المخربين» قافلة إسرائيلية على مفرق وادي الزينة، فأصيب لنا عشرات الجنود، بعضهم قتلى والباقون جراحهم خطيرة.

- ألم تقبضوا على أحدهم؟

- سقط لهم جريح إلا أن المجموعة استطاعت إنقاذه وقيل إنهم اتجهوا نحو برجا.

- وكيف كانوا قبل لحظة العملية؟

- كانوا يبيعون الأجواخ والملابس، ولم يخطر ببالنا أنهم يخفون الأسلحة تحت الثياب.

- برجا، برجا يجب تدميرها، يجب حرقها وشنق شبابها. لقد اعتقلنا أربع مئة «مخرب» منها ومع ذلك فإن الإرهاب ما زال «معشعشاً» في عروقهم!!!

- أكثر من ذلك يا حضرة الكولونيل، ففي اليوم التالي أنجبت إمرأة طفلة فأسموها «زينة» تيمناً بوادي الزينة حيث حدثت العملية.

- الطفل في برجا يجب أن يقتل.

- وأكثر يا حضرة الكولونيل فأحد تجار برجا كان يبيع الحلوى الإسرائيلية في البلدة منذ عدة أيام، فتصدت له إمرأة ولكمته «بالكندرة» وداست الحلوى بقدميها.

- اعتقلوا ما تبقى من أهالي البلدة.

- لقد طوّقنا البلدة، فحطمنا محتويات منزل كمال دمج ولما لم نجده اعتقلنا زوجته نازك المدرّسة في المدرسة الرسمية، كما ذهبنا إلى المدرسة حيث ركع المدرسون والطلاب.

- وهل حدث شيء بعد هذا؟

- أضربت البلدة لمدة أربعة أيام، فرشقونا بالحجارة حتى أن طفلاً برجاوياً رشق أحد الجنود بحجر «بنقيفة» مما أدى إلى قلع عينه اليسرى.

ـ وماذا فعلتم ؟

ـ امتدت حركة الإضراب إلى كافة قرى الإقليم وقد صدرت بيانات تدعو إلى تصعيد الإضراب مما اضطرنا في النهاية إلى الإفراج عن السيدة دمج.

ـ وأيضاً يا حضرة الكولونيل أهالي الصرفند قطعوا الطريق الساحلية احتجاجاً على قتل مواطنهم « الحاج فرحات » البالغ من العمر سبعين عاماً برصاص أصدقائنا وفي ذكرى التأبين ألقى مسؤول حركة أمل داوود كلمة قال فيها « إن الرصاصة التي وجّهت إلى الحاج يحي فرحات موجهة إلى كل منا، والمقصود أن نخون تراثنا وديننا وأن نركب في القطار الإسرائيلي، لا لن نركب وسنقاوم، وليعلموا أننا لن نموت في فراشنا ولن نموت خونة ».

وقبل أن ينتهي من إعطاء تعليماته حتى جاءه عامل اللاسلكي : برقية مستعجلة.

ـ مواطن يهاجم شاحنة عسكرية في شارع رياض الصلح في صيدا ويلقي عليها قنبلة يدوية.

ـ إشتباك لمدة ساعة بين مسلحين ودورية إسرائيلية على طريق حوش بسمة قرب مخيم برج الشمالي شرق مدينة صور.

ـ جرح جنديين إسرائيليين في قنبلتين يدويتين على سيارة « جيب » كانت تمر قرب مرتفعات أرنون شمال النبطية.

ـ مواطن من صيدا يطعن جندياً إسرائيلياً بخنجر في عنقه ويركن إلى الفرار.

* * *

دخل أبو هاني مسؤول المخابرات في منطقة الزهراني وتوجه فوراً

نحو مكتب حايم :

ـ تصوّر ذهبت إلى جبشيت لأجتمع بشيخ البلدة من أجل التعاون، فرفض مصافحتي، بل طردني من منزله لأن المصافحة برأيه إعتراف بإسرائيل وخيانة.

ـ ولماذا لم تعتقله ؟

ـ قد يثور الرأي العام ضدنا.

ـ وهل يهمنا نحن الرأي العام يا (...) الرأي العام فورة فقط، فجنودنا ينامون في « كنيسة الرب » في الشوف، كما أننا نقيم أيضاً في « سيدة المنطرة » في مغدوشة ورغم مطالبة الكاهن سابا داغر بإخلاء المنطرة فإننا ما زلنا نرفع السواتر الترابية حولها. فالرأي العام عندنا مجرد نكتة، فاذهب فوراً وعصّبه « بالعمامة » التي على رأسه.

ـ هناك شيوخ آخرون يعارضون تشكيل الحرس الوطني هل أقتادهم أيضاً ؟

ـ إذا استطعت الذهاب إلى بيروت وجئت لي بعبد الأمير قبلان فلا تتأخر دقيقة واحدة، فسلام الجليل يبيح لنا كل شيء، حتى انتزاع الجنين من بطن أمه.

ويرن جرس التلفون :

ـ نساء عين الحلوة يعتصمن في مسجد الجميزة احتجاجاً على اعتقال أولادهم في أنصار ويطالبن بمعاملتهم كأسرى حرب، بل إن الإعتصام تطوّر إلى تظاهرة ضمت ألفي إمرأة، وطالب من مدرسة حطين وعدداً من الشيوخ وقد أصيب أحد جنودنا بجرح بليغ من جراء رشقه بحجر.

ـ عين الحلوة، عين المخربين، ألم يتوبوا بعد لقد جرفنا بيوتهم ومع ذلك يهتفون ضدنا، ألم تهذبهم مجازر صبرا وشاتيلا !!

ـ أكثر يا حضرة الكولونيل كانوا يقولون لا إله إلا الله بيغن عدو الله ـ أطلقوا سراح المعتقلين ـ ثورة ثورة حتى النصر .

ـ أطلقوا الرصاص عليهم، أريد مزيداً من القتلى، والذي يقتل أكثر سينال ترقية في الجيش.

ـ أطلقنا الرصاص فأصيبت سبع نساء إصابات حالة بعضهن خطرة وهن: مريم شحادة، خيرية عويدات ومريم صالح، ورغم ذلك فعادوا وقطعوا الطرقات بإطارات السيارات وإحراق الدواليب، وقد اعتقلنا خمسة طلاب إلا أن الباقين أعلنوا الإضراب وامتنعوا عن الدروس بل أن أحدهم أشعل النار بنفسه وهجم علينا وهو يصرخ: أريد أبي، أريد أخي.

* * *

ويعود أبو هاني مسرعاً وعلامات الغضب تزيد وجهه تجعداً:

ـ أعلن أهالي جبشيت الإضراب العام، فاعتصموا في الحسينية، وحركة الإعتصام تمتد إلى صريفا والشهابية وو..

ـ اعتقل المحرضين.

ـ قالوا لنا إننا لو اعتقلنا كل البلدة فإنهم «كالسيل يجرفون كل من يقف في طريقهم، فالسيل للمنخفضات أما هم فسيلهم للمرتفعات». كما أن أحد الكهول صرخ بوجهي وقال: إذهبوا ووسّعوا معتقل أنصار، فنحن هنا سنظل معتصمين حتى الإفراج عن راغب حرب وكل المعتقلين.

ـ وماذا يفعلون في الحسينية؟

ـ قبضات أيديهم مرفوعة ويصرخون «الله أكبر ـ الله أكبر ـ أفرجوا عن راغب حرب وكافة المعتقلين».

ـ وهل كان الإضراب شاملاً؟

ـ لقد مضى على الإضراب سبعة عشر يوماً. المحلات مقفلة، المدارس متوقفة، والمزارعون يرفضون قطاف مواسمهم، فقط فران البلدة يعمل، وعندما هددنا بإغلاق الفرن قالوا: نصوم والصوم فريضة من عند الله.

ـ هل وجدتم أسلحة في بيوتهم؟

ـ فتشنا كل الزوايا حتى مبرّة «السيدة زينب» المعدة للأيتام فلم نجد سوى كتباً «للخميني» وسيرة حياة أبو ذرّ الغفاري، فمزقنا كل هذه الكتب بما فيها القرآن الموجود بكثرة في المبرّة.

ـ هل تعرَّض لكم أحد؟

هجم علينا الأطفال اليتامى وكانوا يهتفون: راغب حرب، راغب حرب، وقد هجمت عليَّ طفلة وقالت لي إنني قتلت والدها في النبطية أثناء اجتياح الـ ٧٨.

ـ وفي الحسينية؟

أصابهم الجنون فحملوا العصي و«المناكيش» وكانت فتاة تحمل «مكنسة» فصفعت بها أحد الجنود على رأسه وفي داخل الحسينية كتبوا «من الأفضل أن نموت جميعاً ولا نكون أذلاء تحت سلطة الصهيونية وأميركا»، «وازينباه ـ الموت لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة»، «لا إله إلا الله الأسير حبيب الله»، «أفرجوا عن معتقلي أنصار»، «أفرجوا عن الوطن المعتقل».

ـ ولجنة الحرس الوطني؟

ـ لقد استقالت وهرب المختار وأعضاء اللجنة، وقد وضعت لجنة الإعتصام الشمع الأحمر على منازلهم ووجهوا لهم تهمة خيانة الشعب والوطن.

عامل اللاسلكي يدخل حاملاً برقية مستعجلة:

- إعتصام في كل مساجد الجنوب واليافطات تغطي مداخل القرى «التعامل مع إسرائيل حرام»، «أخرجوا من أرضنا أيها الغزاة - أفرجوا عن الشيخ راغب حرب ومعتقلي أنصار».

ويرن جرس التلفون رابعة:

- انطلقت تظاهرة شعبية ضخمة في النبطية شارك فيها الطلاب والطالبات وقد رشقونا بالدفاتر والأقلام وإحداهن قالت إنها ستترك المدرسة لتلحق بمدرسة الإستشهاد من أجل الوطن. وكان طفل محمول على الأكتاف يهتف «بدنا نحكي عالمكشوف، صهيوني ما بدنا نشوف».

- طلاب وطالبات مدرسة السكسكية والصرفند وعدلون يتظاهرون ويشعلون الإطارات على الطريق الدولية ويرجون الجنود بالحجارة عندما حاولنا تفريقهم أصيب خمسة من المتظاهرين بالرصاص.

- جبهة المقاومة الوطنية دعت جميع أبناء الجنوب إلى تصعيد نضالهم من أجل إنقاذ الجنوب، وحركة أمل اعتبرت أن «الصحوة الجنوبية كانت باستمرار إيذاناً بالرفض، فلسنا أضعف من الفيتنام وليسوا أقوى من أميركا»، كما أن علماء جبل عامل اعتبروا أن القضية ليست قضية فردية بل تشمل كافة المعتقلين في سجون الإحتلال.

- عمّت لبنان تظاهرات التضامن مع انتفاضة الجنوب فشملت البقاع والشمال وبيروت. وفي الضاحية الجنوبية نفذت الإعتصامات في الشياح وحي السلم والمصيطبة.

وقد دعا نائب رئيس المجلس الشيعي الشيخ محمد مهدي

شمس الدين إلى الإعتصام العام يوم ٣ نيسان ١٩٨٣ دعماً لانتفاضة الجنوب. ودعا الشيخ إلى إنهاء الإحتلال وفقاً لقراري مجلس الأمن ٥٠٨ و٥٠٩.

- الإعتصام يعم لبنان كله. والجنوب كالبركان يشتعل وقواتنا لا تستطيع التنقل، حتّى أن المخربين ابتدعوا أساليب جديدة في المقاومة، كمائن، إغارات ليلية، زرع ألغام، سيارات مفخخة، بل اعتبروا أن هذا التحرك بداية نهوض وطني لطردنا وهو ليس تحركاً شيعياً بل تحرك لبناني ضد الإحتلال (نداء نبيه بري إلى جميع قيادات الحركة في الجنوب)، كما أصدر الحزب الشيوعي اللبناني بياناً دعا فيه كل الشيوعيين والوطنيين في الجنوب اللبناني إلى بذل كل الجهود في سبيل إنجاح الدعوة للإعتصام الشامل.

- وماذا كانت النتيجة؟

تحوّل الإعتصام إلى يوم «للمعتقل اللبناني في سجون العدو» وأمام اتساع حركة الإضراب والسخط الشعبي الذي انطلق بشكل لم نتوقعه وقبل أن تفلت الأمور من أيدينا أفرجنا عن الشيخ حرب وقد أوضح صديقنا «شوقي» للرأي العام أن الشيخ راغب لم يكن معتقلاً بل استوضحناه بعض الأمور وإن الفئات الهدامة هي التي صوَّرت للرأي العام أنه معتقل!!!

- إمنعوا دخول الصحف إلى الجنوب وتحديداً السفير وبيروت المساء والنداء والعواصف والمستقبل ووو.. فهذه الصحف تشوّش عقول الناس.

- وماذا بعد؟

يجب عدم إشعار أهل الجنوب بأنهم حققوا نصراً على قواتنا، فخطوة الإفراج عن الشيخ راغب خطوة ذكية لتنفيس التحرك.

ولكن يجب تمشيط محيط قرى البابلية والكوثرية والغسانية والدوير وشن حملة مداهمات واسعة.

ـ سننفذ الأوامر بسرعة يا حضرة الكولونيل.

* * *

ويرن جرس التلفون:

ـ قامت قواتنا بتطويق منزل الشيخ علي ياسين في مجدل سلم كما اعتقلنا عضوين في بلدة انصارية من حركة أمل ومنفذ منفذية الحزب السوري القومي الإجتماعي في راشيا الوادي.

ـ اعتقلنا حوالي خمسين شخصاً من صيدا والوردانية وشحيم وبرجا، كما اعتقلنا الشيخ زكي من بلدة راشيا الوادي بسبب رفضه إنشاء الحرس الوطني في البلدة.

ـ تم استدعاء محمد الزعتري رئيس غرفة التجارة والصناعة في صيدا كي لا يتخذ أي إجراء بحق التجار الذين يستوردون البضائع والمنتوجات الإسرائيلية.

ـ مداهمة مخيم عين الحلوة بواسطة «الحرس الحدودي» واعتقلنا خمس نساء هن: بشرى أيوب، وشكيبة محمود وأم صالح الكرم وفاطمة داوود (زوجة الدكتور الأسير صبحي أبو جاموس وهي أم لسبعة أطفال» كما اعتقلنا رئيس بلدية القصيبة محمد الصايغ و و..

وفيما هو يتكلم على التلفون، عامل اللاسلكي يدخل حاملاً

ـ برقية مستعجلة.

ـ أهالي الخرايب قطعوا طريق صور صيدا احتجاجاً على اعتقال ثلاثة من بلدتهم، فافترشوا الأرض أمام دباباتنا وكانوا يحملون العصي والمجارف ومناجل الحصاد، حتى أن عجوزاً ضرب أحد

جنودنا بالعصا التي «يتعكّز» عليها.

ـ وكيف وصلوا إلى الشارع العام؟

بالتراكتورات وعلى ظهور الحمير، وبعضهم مشى سيراً على الأقدام، حتى أن طفلاً إبن ستة أشهر لم يبق في البلدة كما أن بلدتي ارزي والزرارية ووفود من القرى المجاورة انضموا إلى حركة أهالي الخرايب.

ـ وماذا كانوا يقولون؟

ـ كانوا يهتفون «بالدم بالروح نفديك يا إمام ـ وإن الأرض أرضهم ويجب أن نرحل عنها»، بل (شحبروا) وجوههم وأيديهم برماد الدواليب المحروقة لأنهم سيعتصمون حتى الموت إذا لم يفرج عن أبنائهم الثلاثة.

ـ هددتهم باعتقال كل أهالي البلدة وتدميرها خلال ٥ دقائق إلا أنهم استمروا يهتفون ضدنا، بل تجرّأ أحدهم وأطلق النار من بندقية صيد على إحدى سياراتنا فهم لا قوة في الأرض تستطيع إخضاعهم، كما قالوا لنا «إن النساء ستطردنا بالأحذية لأن دور الرجال لم يحن بعد»!!!

ـ ولماذا كانوا يقاتلون «المخربين» إذاً؟

ـ قال لي مسؤولهم إنهم مع القضية الفلسطينية وإنهم ضد التجاوزات فقط، أما نحن فإنهم لا يريدون رؤية وجوهنا لأن رؤية «الصهيوني» كفر، حسب تعاليمهم الدينية، بل أن أحد شيوخ البلدة من آل الدر رفض دخولي إلى منزله وقال لي بغضب «ستكون مكسور الخاطر». وعندما صممت على اقتحام البلدة هجمت علينا النساء وأشعلت النار بسياراتنا، كما أن بعض الشباب ارتدوا الأكفان البيضاء وهم يصرخون: أنا عاملي ـ أنا صوري ـ أنا جنوبي ـ

أخرجوا من أرضنا.

ويرن جرس التلفون:

ـ نفذت مجموعة من المخربين حكم الإعدام بأحد عناصر الحرس الوطني (جندل) في صور، وقد استعملوا رشاشات حربية واختفوا. وقد أدّى هذا الحادث إلى بث الرعب في قلوب عملائنا والأكثرية تفكر بالهرب والهجرة إلى الخارج، بل وردتنا معلومات بأن بعضهم يبعث برسائل سرية إلى قادة «المخربين» بأنهم «يقسمون بالله بأن لا يتعاملوا معنا بعد اليوم، وأن الخوف فقط هو الذي دفعهم إلى الإنخراط في الحرس الوطني».

ـ وزعت قصاصات ورقية ليلاً في صيدا بإسم «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية» تحذر من الإتصال بنا أو ترويج بضائعنا كما انفجرت في نفس اليوم ثلاث عبوات ناسفة في محلات تجارية تبيع من بضائعنا.

ـ تعرض مصطفى بوجي مسؤول نقابة الصيادين في صيدا لعملية اغتيال بعد أن أقام مأدبة عشاء للضابط ألبرت وذلك بمناسبة إطلاق بعض الأسرى من أنصار.

وما أن انتهى من قراءة البرقية حتى رن جرس التلفون:

ـ الساعة الرابعة فجراً وجدنا العلم الإسرائيلي محروقاً على مفرق بلدة أنصار وعلّق مكانه العلم الفلسطيني، كما أن بلدة المعشوق كانت مطلية بشعارات معادية لنا بمناسبة يوم الأرض، وقد جمعنا كل أهاليها، فأزالوا الشعارات وقلنا لهم إذا تكررت هذه الأساليب سندمّر البيوت فوق رؤوسكم، إلا أن إمرأة زوجها معتقل في أنصار قالت إنها ستحفر الشعارات على «ثدييها» إذا هدمت جدران البلدة.

ـ خذوها إلى أنصار.

ـ لقد أخذناها حضرة الكولونيل وقد أجهضت في السيارة عندما ضربها «أديب» بكعب رشاشه على بطنها.

ـ برافو، برافو، أعطه إجازة على عمله الرائع.

ويدخل عامل اللاسلكي حاملاً برقية للكولونيل:

ـ عملية تخريبية ضد قواتنا قرب مفرق القاسمية أدت إلى إحراق باص وتدمير ملالتين وقد اختفى المهاجمون في البساتين المجاورة.

ـ مزارعو الجنوب يتظاهرون بسبب كساد موسمهم ويبرقون لحكومتهم بمنع دخول بضائعنا الأراضي اللبنانية، وظهر أحدهم على شاشة التلفزيون وهو يصيح: لقد أصبح الليمون علفاً للحيوانات ـ أين العرب ـ أين العرب لمساعدتنا.

ـ معتقلو أنصار يحرقون الخيم ويطالبون بالإفراج عنهم وقد فضّلوا البقاء في أنصار على التجنّد في المخابرات.

ـ إنفجار في سيارة شوقي العبد الله للمرة الرابعة.

ـ مقتل مسؤول الميليشيات في النبطية حسن شيش.

ـ إنفجار في إذاعة صوت الأمل للرائد حداد.

ـ المخاتير ورؤساء البلديات يرفضون ملء الإستمارات ويعلنون في اجتماع عام في بيروت بدعوة من رئيس حركة أمل نبيه بري رفضهم للإحتلال وتمسكهم بالسلطة الشرعية.

* * *

يفقد الكولونيل حاييم أعصابه ويغمى عليه، فيسارع الحراس ويأخذونه إلى المستشفى العسكري في نهاريا.

وقد أفاد الطبيب بأن حالته النفسية خطيرة وتحتاج إلى حوالي

شهرين نقاهة.

عندها اتخذت القيادة العسكرية الإسرائيلية قراراً بتعيين «داني» قائداً عاماً لمنطقة الجنوب.

إلا أن الكولونيل داني فوجىء في اليوم التالي بأن أغلبية الجنود يرفضون ركوب الباصات والملالات أو حتى التجول ليلاً أو نهاراً على الطرقات العامة، بل رفعوا عريضة يطالبون فيها بأن يتم نقلهم بواسطة طائرات الهليكوبتر وذلك بسبب تزايد الهجمات الفدائية عليهم، حتى أن جندياً أصيب بنوبة جنون عندما مرّ من أمام مفرق وادي الزينة، ورغم محاولة القيادة الإسرائيلية منع المرور على مفارق الطرقات وتحديداً القاسمية ـ الزهراني ـ البص ـ رأس العين ـ وادي الزينة و و إلخ.

إلا أن الجنود استمروا في رفضهم السير على الطرقات وطالبوا بنقلهم بالطائرات..

ـ الكولونيل داني اعتبر أن المسألة في غاية الخطورة فبعض الجنود يرفضون الخدمة في لبنان، بل سمع أغنية من بعضهم:

«أيتها الطائرة طيري بنا إلى لبنان

سنقاتل من أجل شارون ونعود في نعش».

كما أن بعض الجنود أصيب بعجز جنسي ونوبات جنون وإزاء هذا الوضع الخطير اتخذت القيادة الإسرائيلية الإجراءات التالية:

ـ يمنع وقوف السيارات على جوانب الطرقات ويسمح للمارة بالتجول في ساعات محدودة.

ـ إقامة سواتر ترابية عالية أمام الحواجز العسكرية.

ـ وضع أسلاك شائكة على مفارق الطرقات.

ـ إقامة نقاط مراقبة على السطوح.

ـ تمشيط البساتين ليلاً وإطلاق النار بدون إنذار.

ـ تفتيش كل شاحنات الخضار تفتيشاً دقيقاً.

ـ إعتقال كل التجار الذين يرفضون شراء البضائع الإسرائيلية.

ـ ترحيل المخاتير الرافضين ملء الإستمارات إلى البقاع.

ـ إحصاء تنقلات الشباب والنساء والكهول، على أن يقدّم كل من يذهب إلى بيروت ـ ورقة ـ بعنوانه هناك ومدة إقامته.

ـ يمنع رؤية اثنين في الشارع أو المقهى.

ـ إغلاق النوادي وتمزيق روزنامات نادي التضامن في صور.

ـ يمنع عقد الإجتماعات العامة وتعليق اليافطات، وكل إجتماع أو إحتفال يجب أن يكون مرخصاً من قيادة المنطقة.

ـ إذا توفي أحد المواطنين يسمح لعائلته فقط السير في جنازته.

ـ تستدعى كل إمرأة أو فتاة لا يوجد زوجها أو شقيقها في القرى أو المخيمات.

وفي اليوم التالي استدعى الكولونيل داني مخاتير المناطق وأفهمهم بإيصال هذه التعليمات إلى قراهم، بل أن جيش الدفاع وزّع آلاف البيانات حول ضرورة التقيد بهذه التعليمات، وقد أعذر من أنذر!؟

★ ★ ★

بعد ثلاثة أيام من إعلان هذه الإجراءات تعرّض الكولونيل داني إلى عملية إغتيال على مفرق حبوش أدت إلى فقدان عينه اليسرى وقد سارعت القيادة الإسرائيلية بتعيين «شرف» مكانه في اليوم الخامس لاستلامه مقاليد القيادة محل سلفه وقد وصلته برقية تقول:

ـ سيارة مفخخة في صيدا تفجّر لاسلكياً قرب سينما هيلتون فيحترق باص بداخله عشرون جندياً.

ـ إطلاق قذيفة أر . بي . جي . على منزل حيدر دايخ في جويا .

ـ تجريد آل الخليل في صور من أسلحتهم لعدم كفاءتهم في الحفاظ على أمن المدينة ، بل تم توقيف أحد أولاد « الخليل » لمدة ثلاثة أيام .

ـ اكتشاف صواريخ غراد في بلدة مجدل سلم موجهة نحو كريات شمونة .

ـ صوَر لمعروف سعد وكمال جنبلاط على جدران صيدا وصور .

قرأ شرف البرقية واستدعى مساعده أبو داوود :

ـ راقبوا تحرّكات النساء واعتقلوا خديجة وسلمى وفاطمة ووو . .

ـ حققوا مع عمال البناء في زبدين وأخبروهم بأنه لا يكفي أن يكون الشخص إرهابياً ، إنما المطلوب التعاون معنا ، وإذا لم يراقبوا تحرّكات « المخربين » ويخبروننا بأي حركة فلسوف نأخذهم جميعاً إلى أنصار .

ـ فقط عمال زبدين ؟

ـ كل عمال الجنوب وفلاحيه وملاكيه ، يجب أن يساعدونا على ضبط أوضاع المنطقة .

وماذا بعد .

إتصّل بجميع مدراء المدارس والجامعات بأن يدرّسوا طلابهم عن أهداف عملية الجليل وأهمية السلام مع دولتنا ويجب إدراج اللغة العبرية في البرامج المدرسية ونحن مستعدون لتقديم حوائجهم من التجهيزات والمعدات ووو أريد أيضاً تزفيت بعض الطرقات لخداع الأهالي ، فهذه مناطق محرومة جداً ولربما تقديم بعض الخدمات يؤدي إلى تطبيعهم .

ـ مستحيل يا حضرة الكولونيل ـ هذا شعب لا يُطبّع ـ فتاريخهم منذ ما قبل أحمد باشا الجزار والعثمانيين والفرنسيين . تاريخ رفض وثورات ، بل تراهم يعتزون بأمجادهم وكيف خاضوا معارك يارون والشقيف وبنت جبيل ـ وإن جدهم ناصيف النصار ووو . .

ـ لقد أركعنا أهالي الضفة وقصفنا المفاعل النووي في العراق وضممنا الجولان وو .

ـ يقولون إن الجنوب ليس الضفة وليس سيناء بل يتحدثون في مجالسهم الخاصة أن جبل عامل سيكون مقبرة لإسرائيل وربما تكون نهاية دولتنا من هذا الجبل ، كونه جبل العلماء والأنبياء والمناضلين الوطنيين .

ـ دعهم يحلمون ، لقد هربوا كالعصافير وكانوا يساقون كالخراف إلى معتقل أنصار ، المهم أن نتخذ الإجراءات اللازمة ـ أريد إعتقالات يومية ـ مداهمات للقرى وللمخيمات ليلاً ـ وجرف ٥٠٠ متر على جانبي الطرقات العامة .

ـ يوجد بساتين وجدران ترابية ؟

ـ فلتجرف البساتين والجدران ، حتى المقابر أجرفوها ـ فأمن جنودنا يسمح لنا بعمل كل شيء بما فيها إبادة البشر وإتلاف المزروعات وتعطيل المدارس ووو .

★ ★ ★

ويرن جرس التلفون

ـ اعتقلنا ثلاثين إمرأة ووضعناهم في مبنى الريجي قرب معتقل أنصار .

ـ هل اعترفوا بشيء ؟

- إحداهن قالت لي إنها «زعلانة» لأنها اعتقلت بسبب زوجها ويا ريتها اعتقلت بسبب عملية فدائية وفي الليل يغنون للجنوب ولشتلة التبغ.
- ضعها في الخزانة؟
وماذا بعد؟
فتشوا المستشفيات، حتى نعوش الموتى دقّقوا فيها ملياً
- أهالي بلدة القرعون يرفضون الحرس الوطني.
- إعتقلوهم جميعاً، حوّلوا البلدة إلى سجن، حتى الأطفال الصغار إسجنوهم.
- لقد اعتقلنا (٧٦) شخصاً يا سيدي ولكن البلدة تظاهرت ضدنا، فحرقوا الدواليب ورشقوا دورياتنا بالحجارة وقد أعلنت كافة قرى المنطقة تضامنها مع القرعون وقد أصدروا بياناً بتاريخ ١٩٨٣/٥/١٢ جاء فيه:

«منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم واليهود عليهم لعنة الله إلى يوم الدين يحاولون أن يتصدّوا للإسلام ويوقفوا مسيرته، وها هم اليوم بعد احتلال حوالي نصف لبنان يحاولون إخضاع أهله الرازحين تحت الإحتلال وإذلالهم، فبعد اعتقال الآلاف ووضعهم في السجون والتعرّض للأئمة ودور الأيتام، ها هم اليوم يحاولون إخضاع أهل القرعون والبقاع الغربي عبر الإرهاب والإعتقال لإجبارهم على الإنضمام للحرس الوطني كي يكونوا جواسيس وأعواناً لهم».

- وسّعوا حملة الإعتقالات.
عامل اللاسلكي يعود مجدداً:
- أهالي ياطر يرفضون الحرس الوطني ويتظاهرون.
- حاصروا البلدة وامنعوا عنها الطعام.

- هناك تلامذة في بنت جبيل والقرى المجاورة.
- ممنوع الذهاب إلى أي مكان حتى الخروج من منازلهم ممنوع - وإذا قاموا بتحرك فمعتقل أنصار جاهز لاستقبال المزيد.
- لقد وجهوا نداءً لفك الحصار عنهم.
- وماذا يقول النداء؟
- «إن بلدتنا تقع ضمن منطقة عمليات قوات الطوارىء الدولية، وفي ظل غياب السلطة فإننا نعتبر أن القوات الدولية مسؤولة عن أمننا وحمايتنا، وقد راجعنا أكثر من مرة لكنها مثلنا تتعرض للضغط والإستفزاز، وضباط العدو ومنذ شهور عدة يفدون الواحد بعد الآخر مرة بالترهيب ومرة بالترغيب محاولين جرّ عدد من شبابنا للقيام بمهمات تصب في خدمة الإحتلال، وحتى الآن ما زالوا يواجهون بالرفض القاطع، وفي الأسابيع الثلاثة الماضية صعّد العدو من إجراءاته القمعية ضد بلدتنا فأقام حاجزاً على مدخلها وراح يستفز الأهالي ويوقفهم ساعات طويلة وغالباً ما تقوم عناصر الحاجز على ضرب وإهانة أي شخص، لا يعجبها شكله أو إسمه، ومنذ يومين منع تلامذة البلدة من التوجه إلى مدارسهم في القرى المجاورة، وفرض على من يريد مغادرة البلدة الحصول على ترخيص مسبق، كما فرض على البلدة بمعاونة عملاء الإحتلال ومنعت عنها أية إتصالات مع الجوار. إننا نضع هذه الحقائق أمام الرأي العام وأمامَ المسؤولين ونطالب الجميع بالتدخل لرفع الحصار عن ٥ آلاف مواطن».
- استمر في حصار البلدة حتى يركعوا، فبيروت معقل «المخربين»، خضعت لمشيئة جيشنا،
- ولكنهم مصممون على الرفض، وإن الرفض رضعوه مع حليب

أمهاتهم.

- أنا أقول الحصار - حاصروهم وإذا استمروا في عنادهم فسمّموا مجاري الينابيع حتى يموتوا عطشاً.

★ ★ ★

« ويستمر العدو في حصار ياطر وبيصور ومعصريتي وو وأحياناً كثيرة الضاحية الجنوبية وحتى إلى (...) ».

قام شرف نحو المرحاض وقبل أن يفتح الباب أخبره عامل اللاسلكي ببرقية من الرائد حداد :

- اقتحم أهالي عيترون سجن البلدة، فخلعوا بوابة الحديد بأيديهم وأطلقوا سراح مواطنهم إبراهيم بيضون وقالوا إنهم لن يدفعوا الضرائب بعد اليوم.

- إعتقال منظمي معرض الكتاب الإسلامي في القليلة.

- أحد المدرسين من بلدة حولا أعطى لطلابه موضوعاً إنشائياً عن الحرية ومقاومة المحتل الأجنبي وقد ألقت عناصرنا القبض عليه بتهمة التحريض على الفتنة.

- منشورات توزع لأول مرة في قرى الشريط الحدودي تدعو إلى رفض دفع الضرائب.

★ ★ ★

بدأ « شرف » يلطم على رأسه ويتمتم :

لقد ضاع سلام الجليل، يجب الإنتقام بقسوة، يجب تكثيف حملات الإعتقال و و و ..

رن جرس التلفون

- تعرضت إحدى دورياتنا لرشقات بالحجارة على مفرق برج الشمالي بالقرب من مؤسسة جبل عامل.

- آه على المفارق، لا تمروا على المفارق، إحذروا البساتين ووو...

- ماذا نعمل يا حضرة الكولونيل ؟

- يجب القيام بعمل « شيطاني » لم يخترعه عقل أو سمع به التاريخ، عملاً يجعل أهل الجنوب لا يلفظون حرفاً واحداً ضدنا بعد اليوم.

- يعني ماذا ؟

- اقتحموا مؤسسة جبل عامل واخنقوا الطلاب فيها.

- يقال إنهم أيتام يتعلمون الدين والمهن المختلفة.

- أيتام - أطفال - فقراء - موسى الصدر - خميني، المهم سلام الجليل.

- متى ؟

- اليوم وأنا بانتظار بطولاتكم.

★ ★ ★

الساعة الرابعة من عصر يوم الجمعة ٥ أيار ١٩٨٣ كانت مؤسسة جبل عامل هادئة، وادعة، في باحتها مئات الأطفال يلعبون بكرة السلة والبعض بكرة القدم والبعض يركض، وآخرون جالسون على المقاعد الحجرية يدرسون، ويتناقشون بالآية الكريمة: « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ».

كانوا قبل نصف ساعة يحتفلون « بالإسراء والمعراج » والآن كالفراشات يلعبون، ويمرحون ويتنقّلون، أما حسن فقد كان يستعد لصلاة العشاء، قال في سره :

ـ الأسبوع القادم سأذهب لكفرصير لزيارة أمي لقد اشتقت إليها كثيراً.

وفيما هو يردّد «اللهم إقبل صلاتي» سمع قرقعة أحذية وجنود وبنادق مكشَّرة، حدَّق جيداً فإذا بهم يدخلون البوابة غير عابئين لاعتراض الحاجب لهم، بل رأى أحد الجنود يصفعه بكعب البندقية على وجهه.

ـ إنهم يتوجهون نحو باحة المؤسسة، أنظر أحدهم يدوس الأزهار بجزمته، يطلق النار على اليافطة، إنهم حوالي مئة جندي، ظهورهم مقوَّصة، أيديهم على الزناد، إنها المرة الألف ونطردهم من هنا ـ بالأمس جاؤوا وطلبوا مني الركوع فرفضت وقلت للضابط الإسرائيلي: «سماحة الإمام علَّمني أن لا أركع إلا لله والوطن» ـ فماذا يريدون اليوم، ألم يقرأوا على المدخل: إسرائيل شر مطلق؟.

عندها قفز حسن من أمام «المغسلة» وكالبرق صاح بين رفاقه:

ـ إنهم يدنّسون المؤسسة.

صار حسن في مقدمة رفاقه وتوجه نحو القوة المغيرة.

ـ الله أكبر ـ الله أكبر ـ أخرجوا من هنا.

ـ مخربون وانهمر الرصاص.

كانت الشمس تراقبهم والبحر يراقبهم والعشب يراقبهم وشتلة التبغ تراقبهم، بل قيل إن مياه الليطاني احمرَّت في ذلك اليوم، كما أن السماء ارتدت وشاحاً أرجوانياً، وأخبرني شاهد عيان أن الدماء حجبت الرؤية، حتى أن فتيات الجنوب أسرعن «لتلوين» شفاههن من دم حسن وأحمد وإبراهيم وجعفر وهاشم وفرج وعباس، أما فتيات المؤسسة فقد غزلن من صدر حسن «مشكّلات» لضفائرهن الوردية.

إحدى نساء برج الشمالي كانت تراقب وتصرخ:

ـ يا ويلهم أطلقوا الرصاص بدون إنذار، بل كانت رشاشاتهم «ملقّمة» مسبقاً، فلم يسحبوا أقسام رشاشاتهم كي لا «تروكب» خوفاً من براءة الأطفال.

واستمروا في إطلاق الرصاص.

سقط حسن على الأرض... إلا أنه بقي يفرفر في الباحة.. الدم يسيل من حلقه وهو يردِّد: «التعامل مع اسرائيل حرام ـ اللهم إقبل صلاتي». امتعض القائد الإسرائيلي فشهر مسدسه وأطلق الرصاص على حلقه ورأسه كي يجهز عليه، كي لا يسمع صوت دمه وهو يصيح: التعامل مع إسرائيل حرام.

ـ أطلقوا الرصاص، أحصدوهم ـ عاش بيغن، عاش سلام الجليل.

ويستمر الأبطال في التصدي بصدورهم، بهتافهم والرصاص يلاحقهم وهم يهتفون: «الله أكبر.. إسرائيل شر مطلق».

كاسترو ورغم جرحه البليغ استمر في مهاجمة الجنود هاتفاً «والله لا نعطيكم إعطاء الذليل ولا نقرّ إقرار العبيد».

أما هاشم فصعد إلى المأذنة وبدأ يرتِّل «إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً». وا حسيناه.. وا جنوباه.

ويستمر الرصاص ويستمر الهتاف.

الرصاص نفذ من جعب الجنود، أما الأطفال الأبطال فما زالوا يهتفون: الله أكبر ـ الموت للطغاة.

حتى حسن الذي سال دمه وأصبح مثل خريطة الوطن كان يهتف في نفسه، كان دمه يصيح، وقيل إن خمس قنابل يدوية انطلقت من دمه الطاهر وانفجرت في معسكر للعدو قرب الدامور.

وقد ذكر لي الحاجب أن الرصاص أصاب صورة الإمام، وأن «فطبولاً» قد خرَّ صريعاً إلا أنه استمر بالتدحرج حتى استقر فوق دم حسن، كما أن الشبكة تمزقت، وحدها يافطة خطها حسن بريشته قبل حوالي الشهر لم يخترقها الرصاص.

ـ وماذا مكتوب على اليافطة؟

ـ التعامل مع إسرائيل حرام.

★ ★ ★

استمر جنود العدو بمحاصرة المؤسسة، حتى أنهم استقدموا قوات إضافية بقيادة أبو داوود الذي أمر جنوده باعتقال الطلاب الذين ما زالوا يهتفون فاقتادوا خمسة عشر طالباً ومع ذلك استمروا في الهتاف:

ـ إنزعوا حناجرهم.

أجابه جعفر:

ـ نهتف بعيوننا.

ـ إقلعوا عيونهم.

ـ نهتف بصمتنا.

ـ إذبحوهم.

ـ الدم يهتف ضدكم.

ـ أحرقوهم.

ـ النار ستهتف ضدكم.

★ ★ ★

قام الأساتذة وبعض الطلاب بنقل الشهيد حسن والجرحى إلى

مستشفى جبل عامل الذي لا يبعد كثيراً عن المؤسسة، بل قبل أن يصعدوهم إلى السيارات قام أحدهم، فبلَّل قميصه بدم حسن وبدأ يطلي جدران المؤسسة بالشعارات.

«التعامل مع إسرائيل حرام ـ بالدم بالروح نفديك يا جنوب».

وصلت أمه وسألت:

ـ ماذا كان يفعل؟

ـ كان يتوضأ إستعداداً للصلاة.

وبدأت النسوة يبكين، ويلوحن بأيديهن، فصرخت في وجوههن:

ـ لماذا تبكين، إن حسن أصبح شهيداً وقد التحق بموكب سيد الشهداء الإمام الحسين، وأنا فخورة بأن ولدي استشهد برصاص الصهاينة، فمن يحب حسن فليهنئني باستشهاده.

ثم طلبت بأن تذهب إلى المؤسسة لتصبغ منديلها بدم حسن والعديد صعدن معها ليصبغن مناديلهن بدم حسن.

في هذه اللحظة تجمَّع أكثر من ألفي مواطن أمام المستشفى بعضهم يحمل العصي، وآخرون زحفوا من قراهم حفاة واللهب يشتعل من عيونهم، كانوا يكزّون على أسنانهم ويصرخون: الموت لإسرائيل ـ الموت لأميركا.

وفيما قوافل الجنوبيين تتقاطر إلى مستشفى جبل عامل من أجل التبرع بالدم، حضر المدعو شوقي العبد الله، إلا أن كهلاً من بلدة كفرصير اعترض طريقه:

ـ إلى أين أيها الوغد؟

ـ سأتبرع بالدم للجرحى، فأنا أستنكر هذه الأفعال ودم الأطفال دمنا.

ـ إخرس، أنت دمك، دم عميل، دم «بق» فاسد، أخرج من

هنا .

ولولا تدخل بعض العقلاء لتمزّق العبد الله إرباً إرباً .

★ ★ ★

أحد مسؤولي أمل صعد لتفقّد الجرحى ، فدخل على طفل جريح وضع في غرفة المراقبة ، وما أن رآه حتى بادره قائلاً :

ـ بلّغ تحياتي لسماحة الإمام وقل له إن الشباب قاتلوا الصهاينة بحق واستشهدوا بحق .

ثم سألت محدثي الذي شاهد بأمّ عينه انتفاضة الأيتام :

ـ وماذا حدث ؟

ـ هبّ الجنوب ، وعمّ الغضب كل القرى والمدن الجنوبية ورغم منع التجول فإننا تهيأنا للإضراب العام في اليوم التالي .

ـ هل حضرت جنازة حسن في كفرصير ؟

ـ لم أستطع ، لكن الذين حضروها ، أخبروني بأن الشهيد حسن طالب بوصيته بأن يلفّ بالعلم اللبناني على أن يكتب في فسحة البياض « التعامل مع إسرائيل حرام » .

ـ وهل استمر الصهاينة في حصار المؤسسة ؟

ـ استمروا في حصارها ومنعوا دخول الطعام كي يموت الأطفال جوعاً ، بل إن الحاكم العسكري استدعى بعض أعضاء الهيئة الإدارية للمؤسسة وطلب منهم بأن يخلوا الطابق الأول لأن القوات الإسرائيلية ستتمركز فيه ، كما طلب أيضاً بأخذ الجرحى إلى المستشفيات الإسرائيلية لمعالجتهم .

ـ وماذا كان الرد ؟

ـ قال له الاستاذ شرف الدين بأن عملية الإخلاء قرار مرفوض

ومهلة الثلاثة أيام فليعتبرها منتهية . وبالنسبة للجرحى قال له : لن نعطيكم فرصة لتبييض صفحتكم أمام الرأي العام ، فنفضل أن يموت الجريح على أن يعالج في مستشفياتكم !!!

ـ وماذا كان رد الحاكم العسكري ؟

ـ جنّ جنونه وصرخ بوجه الإستاذ :

ـ أنتم مؤسسة « مش » لتعليم الدين ، مؤسسة تخريبية ـ مؤسسة لتدريس الحقد ضد إسرائيل ـ فأنا أنذركم ويجب أن تكون مهذباً عند الحاكم العسكري .

ـ وأنت يجب أن تعرف مع من تتكلّم ـ هذا الوطن وطني وإذا استطعت فاقتحم المؤسسة واعتبر أنني أنذرك وأتحداك يا حضرة الكولونيل ..!!

★ ★ ★

ورن جرس التلفون في مكتب « شرف »

ـ لقد نفذنا الأوامر بدقة إلا أن إضراباً عاماً نفذ في الجنوب ، والأهالي قطعوا الطرقات وحرقوا الدواليب وكافة قواتنا محاصرة لا تستطيع الإنتقال ، فكل الطرق مقطوعة بالنار والدواليب والدخان .

ـ كثّف الدوريات وامنع التجول في المنطقة .

ـ ومع ذلك فقد تصاعد الإضراب ، ففي بلدة صريفا وقف الأطفال أمام آلياتهم وهم يهتفون : بالدم بالروح نفديك يا جنوب .

وفي بلدة دير قانون امتنعت فتاة تدعى « طاهرة » عن بيعنا السجائر من دكان والدها لأنها ترتكب إثماً إذا باعتنا .

وعلى مدخل مدينة صور علّقت يافطة مصبوغة بالدماء مكتوب عليها : أخرجوا من أرضنا أيها الغزاة . أما في بلدة الغازية فرغم

إطلاق الرصاص على المتظاهرين، فقد رشقونا بالحجارة.

وفي مدينة صور ورغم تهديدنا التجار بعدم إغلاق محلاتهم، بل قلنا لهم، كل متجر يغلق يوم الاثنين ٨٣/٥/٩ سوف «يفجَّر» إلا أنهم استجابوا لدعوة المخربين.

عامل اللاسلكي يهرول مسرعاً:

- برقية مستعجلة يا حضرة الكولونيل.
- لغم أرضي يودي بحياة ٨ جنود من جيشنا في البقاع.
- قذائف صاروخية على قافلة جنود قرب العقبية.
- أحد معتقلي أنصار يهرب من المعتقل.
- الإضراب يمتد إلى البقاع والضاحية الجنوبية وسكان الضفة الغربية أعلنوا الإضراب ليوم واحد تضامناً مع أهالي الجنوب.
- مواجهة بالأيدي بين جنودنا ونساء زفتا قضاء النبطية تسفر عن جرح أربعة جنود.
- بنت جبيل تعلن الإضراب تضامناً وهذا يحدث لأول مرة في الشريط الحدودي.

لم يكمل شرف قراءة البرقية حتى دوّى انفجار ضخم داخل المقر، مما أدى إلى تفجير البناية المكوّنة من سبع طبقات، وقد قتل في العملية أكثر من ثلاثمائة جندي إسرائيلي، أما «شرف» فقد اعتبر من عداد المفقودين.

الحكومة الإسرائيلية أعلنت الحداد القومي وارتدى بيغن ثياباً سوداء وقد علّق إيتان قائلاً: «إن لبنان ليس صحراء سيناء الرملية الجدباء».

وآخر المعلومات تفيد بأن النار ما زالت تتصاعد من جراء تفجير مقر الحاكمية العسكرية في صور، ورغم مسارعة رجال الإطفاء من

إسرائيل لإخماد النار المشتعلة، بل ومساعدة المارينز الأميركي، بل إن فيليب حبيب طار بسرعة لتعزية بيغن ومواجهة الوضع الخطير في الجنوب، إلا أن النار ما زالت ملتهبة والحكومة الإسرائيلية تعقد اجتماعات مفتوحة وتزج بقوات إضافية وعبثاً تطفىء ألسنة النيران التي تتصاعد بشكل مذهل على امتداد الطريق لا ترى إلا حواجز نار، حواجز دخان، حواجز من البشر يهتفون: أيها الغزاة أخرجوا من أرض الرفض، الأرض لنا.

وقد أعلن الراديو الإسرائيلي مساء أمس أن النار امتدت إلى قرية «عرابة» قضاء عكا وأن جندياً إسرائيلياً قتل في نابلس.

أما حسن فقد نام في ذلك اليوم هادىء البال فقد أدّى صلاة الإستشهاد، وقد أخبرني حاجب المؤسسة بأن المكان الذي سقط فيه حسن قد نبتت شجرة دم ومن يأكل من ثمار هذه الشجرة يدخل إلى الجنة.

أما رفاق حسن فعادوا يلعبون ويضحكون كالفراشات وعندما يتعبون، يرتاحون تحت ظلال الشجرة وينشدون: بالدم بالروح نفديك يا جنوب.

١٩٨٣/٥/١٥

الجنوب يقاوم الحصار

بعد تفجير مقر الحاكمية العسكرية في صور ومقتل « شرف »، عينت القيادة العسكرية الكولونيل « بيغال » محل سلفه المقتول، ومنذ اليوم الأول لتعيينه أقسم بأن يمسح « الأرض » ببقايا « المخربين »، بل أن الصحف أطلقت عليه لقب « الرجل الدموي » كونه أحد المشاركين في تنفيذ مجازر صبرا وشاتيلا.

بيغال عقد اجتماعاً طويلاً لأركان القيادة الإسرائيلية في لبنان حيث اتخذت المقررات التالية:

- القيام بحملة مداهمات جديدة في القرى والمدن والمخيمات.
- مراقبة المفارق بدقة متناهية ووضع ملالة على كل مفرق.
- تفتيش كل السيارات والشاحنات وحتى الأطفال الرضع فقد تكون القنابل اليدوية بين الأقمطة.
- وضع مجندات على الحواجز لتفتيش النساء.
- زرع الطرقات بالأسلاك والبراميل والدشم والسواتر الترابية.
- زرع ألغام على جوانب الطرقات وتحديد مناطق عسكرية يحذر

الإقتراب منها .

ـ منع كل أنواع الإجتماعات والإحتفالات الدينية وحتى المناسبات العائلية ووو ...

ـ إعطاء الصلاحيات المطلقة لعناصر الحرس الوطني باعتقال وتفجير أي منزل يشتبه بأن له ميولاً معادية لإسرائيل .

ـ توسيع معتقل أنصار ليكون قادراً على استيعاب خمسين ألف شخص .

ـ فرض الضرائب على كل مواطن جنوبي لدفع معاشات الحرس الوطني (الحرس الجنوبي) .

ـ إحصاء عدد السكاكين في كل منزل وعدد البقرات والقطط وو ..

ـ جمع سواطير اللحامين، وكل من يأخذ ساطوراً يستلمه من مقر الحاكم العسكري .

ـ تمشيط البساتين والأحراش ووو ...

ـ وضع أجهزة تنصت في الجوامع والمستشفيات والأماكن العامة .

وهناك مقررات سرية أخرى لم تفصح عنها القيادة الإسرائيلية التي اتخذت لها مقراً في مدرسة الشجرة في « البص » .

إلا أن بعض المعلومات التي تسرَّبت أفادت بأن هذه الإجراءات ستمنع حتى « البعوضة » من المرور على الحواجز الإسرائيلية، بل ادّعى « الراوي » أن هذه الإجراءات الوقائية لم تعرفها إسرائيل منذ نشأتها .

ذهب يبغال ليتسريح قليلاً بعد أن إطمأن إلى فعالية هذه الإجراءات التي ستضبط الوضع في الجنوب وتقطع دابر الإرهاب

« اللبناني »... إلا أنه لم يكد يرتشف فنجان القهوة حتى دخل عامل اللاسلكي حاملاً برقية مستعجلة :

ـ ألقى مسلحان قنبلتين يدويتين على سيارة نقل عسكرية إسرائيلية كانت تمر في السوق التجاري في النبطية، وقد تم نقل الجرحى إلى مستشفى النجدة الشعبية .

ـ عملية عسكرية على طريق صور ـ صيدا تؤدي إلى مقتل أربعة جنود .

ـ مواجهة بالرشاشات جنوب صيدا حصيلتها مقتل جنديين وإعطاب ملالتين...

ـ إعتقالات بالمئات من صيدا وصور والبقاع والإقليم. وقد اقتادت عناصر الحرس الوطني المحامي جويدي من قصر العدل كما اعتقلت الشاعر لامع الحر ووضعته في سجن أنصار .

ولم يكمل يبغال قراءة البرقية حتى رن جرس التلفون :

ـ إجتماع عام في منزل نزيه البزري يضم خمسين شخصية، يندّد بالإعتقالات وربما سيدعون إلى اعتصام عام في المنطقة .

ـ الإعتقالات ما زالت تتصاعد في صور والبازورية والعباسية وقد تم التحقيق مع مختار العباسية حسين جعفر ـ كما تم استدعاء كافة رؤساء البلديات للتحقيق .

ـ تظاهرة في صور قمعها جنودنا بالقوة. كما أطلقت قواتنا النار على تظاهرة طلابية في كامد اللوز حيث سقط سبعة جرحى، ورغم ذلك استمروا بالتظاهر وهم يهتفون « بدنا نحكي عالمكشوف صهيوني ما بدنا نشوف » .

ويهرول عامل اللاسلكي مسرعاً حاملاً برقية مستعجلة :

ـ حركة أمل والأحزاب الوطنية يدعون إلى يوم حداد وطني في

السادس من حزيران بمناسبة الذكرى الأولى لعملية « سلام الجليل ».

ـ وزع بيان في الجنوب يدعو إلى اعتبار يوم الاثنين يوم جهاد ومواجهة وطنية للإحتلال.

* * *

استدعى بيغال بعض الضباط، حيث عقدوا إجتماعاً استمر ست ساعات، وقد قيل إن هدف الإجتماع هو لمواجهة السادس من حزيران، إلا أن القرارات بقيت سرية لأن تنفيذها سيتم فوراً على الأرض.

بيغال لم ينم نهار الأحد (٥ حزيران) واستمر يراقب الوضع من خلف طاولة مكتبه.

ويرن جرس الهاتف:

ـ الإضراب شامل ـ الرايات السود ترفرف فوق المآذن والحسينيات ـ لا حركة أبداً، حتى القطط لم تخرج الى الشوارع، لدرجة أن عصفوراً في السماء لم نرَ..

ـ أطلقت قواتنا النار على موكب شعبي كان متوجهاً إلى حضور احتفال في بلدة أنصارية، ورغم ذلك استمروا في التقدّم ولم يمتثلوا لأوامرنا وكانوا يهتفون « بالدم بالروح نفديك يا جنوب ـ إذا كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني ـ التعامل مع إسرائيل حرام ».

ـ كما قام وفد من أهالي صيدا وقرأ الفاتحة على أرواح الشهداء الذين دفنوا في مقبرة جماعية على مثلث مدرسة الراهبات وكانوا يحملون أكاليل الزهر.

وماذا بعد؟

ـ هاجمت عناصر مسلحة دورية لقواتنا عند مفرق بلدة البابلية فأطلقوا قذيفة بازوكا أدت إلى مقتل أفراد الدورية وفرار المهاجمين.

جن جنون بيغال وبدأ يصرخ على التلفون:

ـ ضعوا علامات (×) على كل متجر شارك في الإضراب.

ـ لقد وضعنا يا حضرة الكولونيل ولكن كل المحلات التجارية في صيدا وصور والنبطية مضربة، ورغم تهديدنا بنسف محلاتهم فإنهم لم يبالوا وأحدهم قال لي: إذا فجّرتم متجري فلسوف ألتحق بجبهة المقاومة الوطنية.

ـ وهل اتخذتم إجراءات أخرى؟

ـ لقد استدعينا مسؤول النقابات حسيب عبد الجواد وسعد والزعتري والشريف ووو ...

ـ وماذا كان ردهم؟

ـ قالوا إنهم لم يدعوا إلى الإضراب وإنما كان الإضراب تحرّكاً عفوياً من الناس لمناسبة الإجتياح وهم مستعدون للذهاب إلى معتقل أنصار.

ـ كلاب ـ مخربون.

ـ كما أننا يا حضرة الكولونيل أغلقنا كافة مدارس المنطقة، فاعتقلنا مدراءها وبعض المدرسين المخربين كما اعتقلنا العشرات من بلدة الدلافة بينهم فتاة تدعى إيمان مبدي.

ـ وسّعوا حملة الإعتقالات واستخدموا الكلاب البوليسية في حملاتكم، واقطعوا كل الطرقات وفتشوا شاحنات الخضار على أن تفرغوا الصناديق المملوءة جيداً.

وماذا بعد يا حضرة الكولونيل؟

ـ أطلقوا النار على كل سيارة متوقفة على جوانب الطرقات.

ويدخل عامل اللاسلكي حاملاً برقية...

- إنتفاضة في معتقل أنصار وقد حرق المتظاهرون عشرين خيمة مما دفع جنودنا إلى إطلاق النار عليهم فقتل ثلاثة من المعتقلين، ورغم ذلك فإن تمردهم ما زال يتصاعد ويحاولون حرق المزيد من الخيم.

- انفجرت قبل ظهر أمس سيارة ملغومة استهدفت دورية إسرائيلية مؤللة لدى مرورها على غاليري سمعان مما أدى إلى مقتل أربعة عسكريين وجرح آخر، وقد استهدفت العملية القائد العسكري لمنطقة الجبل الجنرال «لبكين» الذي نجا بأعجوبة.

- إسقاط طائرة مروحية في البقاع.

- قذائف آر. بي. جي. على تجمّع لقواتنا في صور.

- جثة أحد الجنود وجدت في برميل للنفايات بالقرب من حارة صيدا.

ويرن جرس التلفون:

- كمين مسلّح على مثلث دير قانون - العباسية يؤدي إلى قتل ثلاثة جنود وجرح سبعة، كما أن ملالتين احترقتا على مفرق بلدة بدياس، بل أن المهاجين خطفوا جندياً وفروا هاربين.

ضرب بيغال سماعة التلفون بالأرض وبدأ يصرخ..

- الموت يكمن خلف كل باب في هذا البلد، يجب القيام بعمل شيطاني.

* * *

العمليات العسكرية تتصاعد ضد قوات الغزو، حتى أنها أصبحت بمعدل عمليتين أو ثلاث في اليوم، وهذا الوضع أدّى إلى قيام

تظاهرات شعبية داخل إسرائيل مندّدة بحكومة بيغن وداعية لانسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان، كما تقدّم أولياء أحد الجنود بعريضة إلى موشي أرينز يطالبون فيها بالإنسحاب الفوري، بل إن أحد الجنود انتحر بسبب استمرار القوات الإسرائيلية في لبنان.

إزاء هذا الوضع الخطير اجتمع الكنيست الصهيوني وقد قام النائب ميخائيل بازوهار بسؤال بيغن: هل كنت تقوم بهذه الحرب لو أنك عرفت أن ٥٠٠ رجل سيموتون و١٥٠٠ سيصابون بجروح و٦٠٠ رجل سيبقون مشلولين بقية حياتهم.

وقد رد بيغن داعياً النواب إلى مزيد من الوحدة الوطنية لمواجهة «الوضع الصعب» الذي خلقته المقاومة الوطنية.

وفيما بيغن يلقي خطابه جاءت برقية مستعجلة.

- بينما كانت ملالة عسكرية تمر قرب مبنى مركز الهاتف في ساحة عاليه انفجرت عبوة ناسفة أدت إلى تدمير الآلية ومقتل طاقمها.

- خطف ٥ جنود من مقر الحاكم العسكري في صور.

- أهالي سحمر يتظاهرون وقد رشقوا جنودنا بالحجارة.

- مواجهات بالأيدي في قرى الجنوب وجنودنا يهربون وبعضهم مات غرقاً في نهر الليطاني.

- بوادر ثورة تلوح بالأفق وقد يعلن العصيان المسلح وقيادة قواتنا تتفكك من جراء العمليات المتسارعة، كما أن كل وسائل الإتصال قطعت. «فالمخربون» أعادوا تنظيم أوضاعهم، وهناك مناطق واسعة أصبحت تحت سيطرتهم بل سطا بعضهم على مخازن أسلحتنا وفروا هاربين.

ما أن قرأ بيغن البرقية حتى أمر قائد سلاح الطيران بتمشيط

البساتين وحرقها. بل قرر الكنيست بالإجماع احتجاز كل مواطني الجنوب وصلبهم تحت الشمس. وتحديداً بلدات دير قانون النهر - بدياس - معروب - العباسية.

* * *

نفذت سلطات العدو أوامر بيغن فاقتيد مئات الأهالي بالشاحنات وتم حصار القرى ومنع دخول المواد التموينية. كما قطعت الطرقات وعزلت المناطق عن بعضها، واتخذ قرار بمنع الخروج من المنازل لمدة خمسة عشر يوماً وكل من يسير على الطريق العام أو يقف على شرفة منزله يعتبر مناهضاً للدولة الإسرائيلية، لكن لم يكد يمر يوم واحد على هذه الإجراءات حتى رن جرس التلفون في مكتب رئاسة الوزراء في إسرائيل.

- التظاهرات تعم تل أبيب وكافة المدن تطالب باستقالة بيغن وانسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان.

وماذا كانوا يقولون؟.

كانوا يحملون الشموع ويصرخون «أعيدوا الأبناء إلى الوطن»، «أخرجوا من لبنان المستنقع»، «حرب بغيضة لا لزوم لها»، «إسحبوا الجيش الإسرائيلي من وادي الدموع».

- الساعة الثالثة من صباح أمس انتفض معتقلو أنصار مرة رابعة فأحرقوا الخيم، كما أنهم خربوا مولدات الكهرباء التي تعد الكشافات الضوئية وأحدثوا ثغرات في جدران الأسلاك وقد هرب أكثر من عشرين معتقلاً ورغم إطلاق الرصاص عليهم فإنهم واجهونا بالحجارة وقد قتل اثنان من حراس المعتقل.

- وماذا بعد؟.

- طوّقنا المعتقل بالآليات ومنعنا عنهم الماء والطعام، كما أن جنودنا انتشروا في القرى المحيطة بحثاً عن الفارين، وقد مشطت الطائرات البساتين والوديان ومع ذلك عبثاً بل قد وصلت معلومات أن الفارين وصلوا إلى بيروت مشياً على الأقدام وبعضهم ذهب إلى البقاع.

- هل اكتشفتم مصير الأسير المخطوف؟

- حتى الآن لا، ولكن اعتقلنا كافة أهالي دير قانون النهر، وقد هددنا الكهول الباقين بقتلهم جوعاً إذا لم يعترفوا بمكان الأسير.

- هل كانت هناك ردة فعل؟

- لقد وجه أهالي البلدة نداء إلى الرأي العام قالوا فيه:

«يا أبناء شعبنا، أيها القابضون على التراب، أيها المتمسكون بكل شبر من الأرض، منذ أربعة أيام وجيش الإحتلال الإسرائيلي يحاصر بلدتنا ويقطع طريق الخروج والدخول منها وإليها ممارساً أبشع وأقصى أنواع العقوبات والتعذيب الجماعي على قرية بأكملها من دون أدنى مراعاة لبديهيات الحقوق الفردية والإجتماعية منذ أربعة أيام وبلدتنا محاصرة وأهاليها محتجزون تحت السماء بدون ماء أو طعام. لذلك فإننا نرفع صوتنا عالياً إلى كل الهيئات والمنظمات الدولية من أجل فك الطوق عن هذه البلدة الجنوبية وإطلاق سراح أبنائها».

- برافو على عملكم هذا، ولكن أكملوا إجراءاتكم بهدم بعض البيوت وجرف مواسمهم الزراعية. يجب تأديبهم جيداً حتى تكون دير قانون عبرة لكل القرى الأخرى.

وفجأة يدخل عامل اللاسلكي حاملاً برقية:

- هجوم على ثكنة بعاصير يؤدي إلى إصابة ثلاثة عشر جندياً من قواتنا.

ـ لقد فجرّنا سيارتين للصليب الأحمر الدولي كانتا محمّلتين بمواد طبية لمعتقلي أنصار .

ـ أخبرنا كافة البواخر على تفريغ حمولاتها في مرفأ حيفا .

اكفهر وجه بيغن وبعد نصف ساعة أذاع الناطق الرسمي لمجلس الوزراء باسم ميريدور بأن بيغن أصيب بجلطة دموية وهو الآن في غرفة العناية الفائقة . وهذا حدث بعد سماعه بنبأ التظاهرات أمام منزله وحالات الفرار من الجيش .

* * *

آخر الأنباء من الجنوب تفيد أن عمليات المقاومة الوطنية تتصاعد . كما أن انتفاضة معتقلي أنصار دخلت يومها العاشر ، بل قال بعض سكان القرى المجاورة إن المعتقلين حرقوا أكثر من مائة خيمة ، وحطّموا بوابة المعتقل واعتقلوا الحراس .

* * *

كل هذا يجري في الجنوب ، من حصار للقرى واعتقالات جماعية ، والمسؤولون « الكرام » ملتزمون الصمت باعتباره سيد الأحكام ، كما أن جلالة الملك المعظَّم يغط نائماً في حضن ... دافىء ، بل أذاعت بعض الوكالات العالمية برقية منسوبة لجلالته يعلن فيها عن استعداده لمساعدة بيغن لاستئصال « الإرهاب » اللبناني . الجديد ، فهو لم يكد يصدق كيف قضى على « المخربين » الفلسطينيين حتى يطلع له اليوم « مخربون » جدد يقضّون عليه الحلم والنوم ...

١٩٨٣/٦/١٦

برج رحال أم القرى

وُلدت منذ الأزل. ويُقال إنها هي الأزل. أحبّها « الليطاني » عندما رآها لأول مرة « تقطع » النهر لتملأ الجرّة، صارا يختليان يومياً تحت الجميّزة، يعانقها، يسامرها، يقاسمها زوادة العمل، وعندما انكشف سرها هدّدها والدها بالحرق، إذا أصرّت على الزواج من الليطاني.

الليطاني جنّ جنونه عندما أخبرته بأن والدها يرفض زيجتها منه لأنه من عائلة فقيرة، وأنه قد أقسم أمام البيك بأن تعمل عشّابة في بستانه وتغسل ملابس أطفاله. أقسم له بالله العظيم أن تبقى إبنته عشّابة واذا عتقها البيك فسيعقد قرانها على (...) و« الدخلة » ستكون للبيك كما تنص التقاليد وإلاّ فإنها لن تنجب سوى حيّات وأفاع سامة !!!

ـ وماذا ستعمل يا ليطاني، غداً سأزفّ إلى (...) لم يتمالك الليطاني أعصابه، وما هي إلا لحظات حتى فاضت مياهه على القرى والدساكر المحيطة، فبارت مواسم البيك واقتلعت النصوب. وقد علم أهل ذلك الزمن أن الليطاني خطف فتاة أحد الفلاحين وتزوّجها وهكذا تبدأ الحكاية.

* * *

إنها تشبه البرج، من الصعب الدخول عليها، وقد مات العديد من المواطنين أثناء تسلّق برجها، قرية من الصخور والسنديان، فيها عدة ينابيع ويسكنها عدة أنبياء - النبي قاسم والنبي عباس، وبعد الإجتياح ظهر فيها نبي جديد أسماه أبناء البلدة «النبي خروبة»(*).

كانت قرية فقيرة جداً، تدفع ضريبة «الكروسا» وضريبة الحكي والتنفّس أيضاً. وإذا توفي أحد أبناء البلدة - فالويل لعائلته وأبناء قريته فسيجلدون جميعاً - لأنه لم يخبر البيك بموته!!!

برج رحال استمرت تعمل عشّابة. أحياناً تأخذ أجرتها رغيفاً عفناً، وأحياناً لا تأخذ، وأحياناً يربت البيك على كتفها «برافو» وكفى.

حتى بدأ الزغب ينمو على جسدها، صمّمت أن ترفع رأسها أثناء العمل. صارت تشرب الماء إذا عطشت. طالبت بالتنفيسة والحلّة والتعطيل في أول أيار.

وزعت المناشير في القرى والمزارع، داعية العمال إلى الانتظام في النقابات.

حملت السلاح وأقامت المعسكرات والرحلات، اتهموها بالتخريب والتحريض فلم تأبه لهم، وحفرت بأظافرها بئراً أرتوازياً(**)، وشيّدت مدرسة ومأذنة.

صارت مرجاً.

(*) لقب أطلقه الأهالي على أحد المواطنين.

(**) أهالي البلدة حفروا البئر على نفقتهم بسبب تقاعس الدولة عن تأمين مياه الشرب

* * *

لم ترتجف من برد الاحتلال، لم تسلمه مفتاح البلدة، لم ترضَ بحرسه وجيشه ولحده - قرية «طائفية» ضد الاحتلال، استمرت تدافع عن «عينها»، عن كرومها، عن شجرات الحور الشامخة قرب «السد»، عن شقيفها.

ارتبك قادة العدو. فبرج رحال بعرفهم قرية «معتدلة»، وها هي اليوم عنيدة، مستعصية، حتى أن وكالات الأنباء وصفتها بسيدة الأبراج.

صارت برج رحال ملجأ للقرى المحاصرة، ينامون فيها، يحتمون بصخورها، يرضعون حليبها، وفي المساء يتحلّقون حول مصطبة «النبي خروبة»، يتباركون منه - يتطهّرون بناره ثم يرتدون أكفانهم وينطلقون.

البعض قال إنها قرية ربّانية. والبعض قال إنها ولدت منذ الصغر متمرّدة. ويقال إنها سكنت في الريف المغربي وزارت صعيد مصر ووو...

وسمعت من أحد الكهول أنها تنتمي لثورة طانيوس شاهين ولها صداقة متينة مع عاميّة لحفد وإنطلياس، ويُقال أيضاً إنها قاتلت مع الرسول في معارك بدر وأحُد وتبوك.

برج رحال قرية لم تولد بالصدفة أو بكبسة زر، ولا أحد يعرف التاريخ الفعلي لولادتها.

قرية أعلنت سلطتها، احترفت فن المقاومة، أجادت الكرّ والفرّ، وهي اليوم لا تعرف معنى النوم، لا تعرف الأربعاء من الخميس والسبت من الأحد، ولا أول الشهر من آخره - قرية هائمة،

« تولّعت » بعشق الأرض، ففقدت وعيها السابق و« ارتبط » لسانها
فلم تعد تلفظ سوى كلمة المقاومة، حاولوا « رقيّها »، فلم يسترجعوا
ذاكرتها المفقودة. أقاموا لها « النذور » فاستمرت هائمة، مولعة،
ويشك المؤرخون بأنها مجنونة، فأحدهم يتوقّع أن تعيد صياغة الزمن
من جديد، وأن تضع وعياً جديداً وذاكرة جديدة، وتاريخاً، لذلك
فهي لا ترضى أثناء الكتابة بالفواصل والنقط.

* * *

العدو حاصرها من كل الجهات، نصب لشبابها الحواجز الطيّارة،
منعهم من مزاولة العمل، أو الذهاب إلى المدارس، طاردهم في غرف
النوم، نغّص عيشهم، فعاشوا في البراري والكهوف. - « شرموط
برج رحال لا يمر »، كلمات الجنود للخارجين من البلدة.

ضيّق الحصار عليها كي تختنق، حتى أن القرى المجاورة ظنّت أن
برج رحال قد احترقت. واستمرت برج رجال تقاتل - مع أخواتها
- فدحرت العدو عن روابيها، حاول مرة اقتحامها وما أن سمع أحد
الشبيبة ينادي عبر الميكروفون:

- « الفرق الإنتحارية تهيء نفسها »، حتى ولّى هارباً، وحاول
ثالثة ورابعة، إنها الرقم الأكبر في الإقتحامات، والأهالي يتعجّبون
عندما لا تقتحم القوات الإسرائيلية بلدتهم، فهم على موعد دائم
معها، هم في انتظار لحظة المواجهة، فهي حياتهم ومهنتهم، بل إن
هذا هو سبب ولادتهم.

في الإقتحام العشرين تصدّت النسوة لهم بالحجارة والأحذية.

- « تريدون أن تتزجوا »، قال لهم الجنود. ولكن النسوة استمرين
رشقهم بالحجارة، حتى أن إمرأة في « معركة » خنقت جندياً بأيديها.

ولمّا عجزوا عن دخول البلدة خلعوا ثيابهم عراة متصورين أنهم بهذه
الأساليب البذيئة ينتصرون على إرادة الأهالي.

* * *

انتقم العدو من صمود الأهالي، فعمليات المقاومة الوطنية
تصاعدت، صارت مزدوجة ومركّبة، وأصبح المقاومون يستخدمون
كواتم الصوت في اصطياد الجنود الصهاينة. ولم تعد ترى جنوداً في
أبراج المراقبة؟! جنّد حملات دهم لـ« أرزاي » و« الخرايب »،
وبسبب ثورة الأهالي فرّ هارباً من « السكسكية » فأصيب بهستيريا
القمع، طارد الجرحى في المستشفيات، أطلق جنوده النار على عرس
ظنوه مظاهرة ضد الإحتلال، كما فرض على أصحاب المحلات
التجارية في صيدا إبقاء لمباتهم مضيئة لكشف المقاومين، ولكن دون
جدوى، فكل إجراءاته لم تجدِ. أحد المقاومين من أرض المقاومة
أخبرني أن هواء كانون يساعد رجال المقاومة على التنقّل بسهولة دون
كشف أمرهم. كما قال لي شاهد عيان أن الكلاب تلاحق الدبابات
الإسرائيلية وتعوي عليها بشدة عند مرورها. أما الأطفال الصغار
فتراهم حاملين رشاشات خشبية وداخلها نبلات مروّسة. كما
ينتشرون فرقاً على المفارق، ومرة اعترضوا دورية إسرائيلية، فقال
لهم الضابط:

- « الله يخليكم اسمحوا لنا، فنحن نريد المرور فقط ».

* * *

استمر جنود العدو يحلمون باقتحام برج رحال، فصاروا يتسللون
ليلاً، وأثناء ذكرى أسبوع الشهيد حسن الساحلي جاءت إمرأة بشكل

« شحادة » تتعسس عما يجري في البلدة. ويُقال إنه في بلدة « طورا » انتحل أحد العملاء شخصية رجل دين، فدخل الجامع إلا أن الأهالي اكتشفوه وطردوه من البلدة. كما استعملوا في اقتحامهم للقرى سيارات مدنية قديمة وسرقوا سيارات إسعاف للصليب الأحمر والمؤسسات الإنسانية والإجتماعية لإيهام الأهالي ـ ولكن دون جدوى ـ فكل القرى محروسة، كل العيون تراقبهم، الحراسات ليلاً ونهاراً، قرى محرّرة لا تعرف معنى النوم ـ والسلطة فيها للمقاومة الوطنية اللبنانية.

لذلك قرّر العدو غزوها من جديد.

ـ « يجب تأديب هذه القرى ودكّ حصون التخريب فيها ».

هكذا قال رئيس الوفد الإسرائيلي في مفاوضات الناقورة.

★ ★ ★

شنّ العدو حملته الواسعة ضد القرى السبع، مستغلاً المطر الغزير، ولكنه مني بالهزيمة من جديد فأمطار الشعب الحجرية كانت أغزر من أمطار السماء. القرى على موعد مع المواجهة.

ـ استفقنا الساعة الثامنة ليل ١٩٨٤/١٢/١٣ على هدير الدبابات، قاتلناه بكل شيء، بالحجارة، بالعصي، بأدوات العمل، طفلتي صرخت بوجه أحد الجنود:

ـ سأفجّم رأسك بهذا الحجر.

وأم محمد طعنت أحدهم بسكين المطبخ فوقع أرضاً وتابعت تحدثني ببراءة الأطفال:

ـ كل « وجبة » كانت تواجه قوة إسرائيلية، لقد نهبوا البيوت وسرقوا النقود وهناك بيوت فتّشوها عشر مرات ولم يعثروا على

أحد. أما عايدة، فهاذا أحدّثك عنها ـ حاكت شالاً للحجارة لهذه « المناسبات » فانتقم منها أحد الجنود ورماها بالرصاص فاستشهدت.

ـ عايدة أعرفها جيداً ـ تلميذة نشيطة، كانت تهدّد والدها إذا أخرجها من المدرسة. فكما كانت متفوّقة في المدرسة، تفوّقت أيضاً على الجميع في قتال إسرائيل لأنها تعرف أن العلم في ظل الإحتلال رشق حجارة وزرع عبوات ناسفة.

ـ وماذا بعد يا خالتي؟

ـ شو بدي قللّك، لقد خرجوا من الضيعة « مدمايين ».

★ ★ ★

ملحمة برج رحال تكرّرت في « طورا »، حيث قتل الأهالي جنديين إسرائيليين.. والشهيدة شور عندما دفنت في مثواها الأول، وليس الأخير، لم يستطع أحد أن ينزع من يديها بقايا الزجاجة التي ضربت بها الجندي الإسرائيلي ـ إنها ترفض حتى إلقاء الزجاجة وهي ميتة.

أما في « أم المعارك » فلم يستطع العدو سوى نسف البيوت وتدنيس المعابد. وفي « طيردبّا » استخدم العدو المظليين لإنقاذ دورية حاصرها الأهالي.

فباختصار الجنود الصهاينة كانوا مثل الأطفال الصغار، كما حدّثني والدي: « كان عددهم يفوق عدد سكان البلدة، كانوا يرتعدون خوفاً عندما يدخلون البيوت لتفتيشها، ولما فشلوا في إلقاء القبض على « المطلوبين »، تشاجروا مع بعضهم، وصاح أحدهم:

ـ ماذا حقّقنا من العملية ـ اعتقلنا عدة أطفال فقط ».

* * *

استبسلت برج رحال في الدفاع عن « شقيفها » عن « ليطانيها »، و« النبي خروبة » صار نبياً حقيقياً لدرجة أن الضابط الإسرائيلي المسؤول سأل عنه عند اقتحام البلدة.

برج رحال رفضت أن « يشلّحها » العدو أطفالها. ونفس الشيء في « طـورا » العظيمـة و« طيردبّـا » و« يـانـوح » و« العبـاسيـة » و« الصرفند » ووو ـ فالعدو لم يحصد في غزوه الجديد، كما في غزواته السابقة، سوى أذيال الفشل. وها هي الأزمة داخل « الكيان » تتعمّق وتهدّد إسرائيل بإيقاف المفاوضات و« تنظيم المذابح الطائفية »، ولكن شعبنا البطل لا يصغي لهذه الترهات ـ فالقرى تحت سلطة المقاومة. إنها سلطة القرى المقاومة ـ هم يجترحون الأساطير ـ يعلّمون العالم كيفية مقارعة المحتلين. ولكنهم، وكما أخبرني أبو قاسم عبر اتصال تليفوني من صور:

ـ « قولوا للمسؤولين إننا نريد دعماً فعلياً ـ قولوا لهم إن المجاعة تحوم فوق القرى، العمال عاطلون عن العمل، لأن المخابرات الإسرائيلية تتربّص بهم، والطلاب لا ينزلون إلى مدارس صور ـ فمن عمر العشر سنوات وحتى الستين مطلوبين للقوات الإسرائيلية ـ خبّروهم عن تصريف الحمضيات وإن بعضنا لا يملك ثمن سيجارة ـ وذكّروهم بالمرضى والجرحى في معتقل أنصار، نحن نبارك تحرّككم الإعلامي.

ولكن قولوا للمسؤولين، إننا لا نريد دعماً تلفزيونياً، لقد شبعنا تصريحات ».

* * *

برج رحال، والقرى السبع والقرى العشرون والألف كلها اليوم قرى محرّرة، مصائد موت للجنود الصهاينة ـ ثورتها تتصاعد، روحها تحوم فوق عواصم عرب النفط، وعبثاً يحاول مورفي إجهاض الوليد. المقاومة الوطنية اللبنانية وُجدت لتنتصر وإذا كان السفير الأميركي قد هرب من باب السفارة في فيتنام فإن الصهاينة لن يجدوا منفذاً يهربون منه من الجنوب، فالمقاومة ستلاحقهم ـ وفجر التحرير بدأت أشعته بالبزوغ ـ أما « خليل » ذلك المقاتل الشرس الذي غفى من التعب قليلاً تحت سقف « البرج » ولم يشعر إلا وهو مكبّل بأصفاد الإحتلال ـ خبّريه يا عايدة ويا نجاة ويا يسار أن مواسم الفرح ستغمر القرى قريباً وليكن مستعداً لأكل التبولة تحت « الشقيف ».

١٩٨٤/١٢/١٨

فهرس

صدر للمؤلف :

- ١٠٠ يوم في معتقل انصار

طبعة أولى شباط ١٩٨٣

طبعة ثانية حزيران ١٩٨٣

- انصار « ٣٣ » - طبعة أولى ١٩٨٤

صدر للمؤلف :

- ١٠٠ يوم في معتقل انصار

  طبعة أولى شباط ١٩٨٣

  طبعة ثانية حزيران ١٩٨٣

- انصار « ٣٣ » ـ طبعة أولى ١٩٨٤

سعــــدون حســــين

ثورة القرى

انتفاضات القرى في جنوب لبنان

المؤلف والكتاب

سعدون حسين من مواليد الجنوب اللبناني ١٩٥٣، في كتابه الثالث «ثورة القرى» يتابع نهجه في «١٠٠ يوم في معتقل انصار» و«انصار ٣٣» راسماً لوحات أدبية مستمدة من واقع انتفاضات القرى وثورة شعبنا في الجنوب والبقاع الغربي وراشيا.

بعض هذه النصوص كتبها المؤلف في الجنوب المحتل عبر مشاهدات وتحقيقات عينية مع الأهالي الصامدين. وذلك قبل اضطراره لمغادرة قريته بعد اطلاق سراحه من معتقل انصار.

فنصوص الكتاب ليست تأريخاً وثائقياً وهي لا تشمل أيضاً كل المواجهات البطولية في مناطق الاحتلال.